حاسبوا أنفسكم

قبل أن تحاسبوا

المكتبة التوفيقية

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا

تأليف

عبد الحميد كشك

المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مقدمــة الكتــاب﴾

الحـمـد لله رب العـالمين، وأشـهـد أن لا إله إلا الله ولى الصـالحين، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وعظيمنا محمداً رسول الله.

أما بعد...

فقد كان فاروق هذه الأمة عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يقول: حاسبـوا أنفسكم قبل أن تحاسـبوا وزنوا أعمالكم قـبل أن توزنوا فإن مما يهون عليكـم الحساب غـداً أن تحاسبـوا أنفسكم اليوم، وتـزينوا للعرض الأكبر ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾[1].

رحمك الله يا أمير المؤمنين فأنت الرجل الذى ضرب الله الحق على قلبه ولسانه، يـا من كنت تخاف من الله تعالى خوف من يعـتقد أن النار لم تخلق إلا له وحـده فمن خـاف سلم، لقد غـصت فى معـانى آيات الحســاب حتى بلغت إلى أعـماق الأعمـاق وجرى دمعـك على خديك وخفق قلبك وجلاً وخوفًا من لقاء الله تعالى، وفهمت أن لقاء الله حق، واعتـقدت أن البعث حق وأن السـاعة حق وأن الجنة حق وأن النار حق، فصمت عن الدنـيا وأفطرت على الموت وأعددت الزاد لليلة صبـحها يوم القيامة.

(١) سورة الحاقة الآية ١٨.

يا رافعًا راية الشورى وحارسها
جزاك ربك خيرًا عن مُحِبِّيها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به
رغم الخلاف ورأى الفرد يُشْقِيها
إن جاع فى شدة قوم شَرِكْتَهُمُ
فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها
جوع الخليفة - والدنيا بقبضته -
فى الزهد منزلة سبحان موليها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته
أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم اشتهت زوجه الحَلْوَى فقال لها:
من أين لى ثمن الحَلْوى فَأَشْتريها؟
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به
أولى فقومى لبيت المال رُدِّيها
كذاك أخلاقه كانت وما عُهِدَتْ
بعد النبوة أخلاق تحاكيها
وراعَ صاحبَ كسرى أنْ رأى عُمَرًا
بين الرعية عُطْلاً وهو راعيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا
ببردة كاد طول العهد يبليها
وعهده بملوك الفرس أن لها
سُورًا من الجند والأحراسِ يَحميها

رآه مـــســـتـغـــرقًـــا فى نومـــه فـــرأى
فـيـــه الجـلالة فى أسـمـى مـعـانيـــهـا

وقـــال قَـوْلَـةَ حَقٍّ اصـــبـحـت مـثـــلاً
وأصـــبح الجـيـــل بعـد الجِـيـلِ يَرْويهـــا

امنـت لما أقـــــمـت العــــدل بـينـهُـمُ
فنِـمْتَ نَوْمَ قَـــرِيـرِ العين هـانِيـــهـــا

قـد كنت أعـدى أعـاديهـا فـصـرت لهـا
بنعــــمـــةِ اللهِ حـــصنا من أعـــاديهـــا

أيها الأخ المسلم

لا تنس مـا بعد الموت، فنسيانه ضـلال مبين، فاذكـر اثنين وانس اثنين، ولا تنهر اثنين واحفظ اثنين ولا تأمن اثنين على اثنين.

اذكر الله والموت، وانس إحسانك إلى الناس، وإساءة الناس إليك، ولا تنهر أمك ولا أباك، واحفظ صمتك وأوقات فراغك، ولا تأمن امرأة على سر، ولا تأمن رجلاً على امرأة.

واعمل عقلك وقلبك وفكرك فى فـهم قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالـذين نسوا الله فأنسـاهم أنفسـهم أولئك هم الفاسـقون. لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾**[1].

(١) سورة الحشر الآيات [١٨ : ٢٠].

فصل
فيما يرقق القلب ويَمْلَؤه خشوعًا وخشية لله تعالى

الحمد لله رب العالمين، وأصلى وأسلم صلاة وتسليمًا يليقان بمقام أمير الأنبياء والمرسلين. وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمدًا رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين. صل اللهم وسلم وبارك على هذا النبى الأمين، وعلى آله وصحابته الغر الميامين، وارحم اللهم مشايخنا، ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين.

الحمد لله الذى لا تدركه الأوهام ولا الظنون ولا تحويه الأبصار ولا العيون ولا تناله الآفات ولا المنون، الذى أنزل الكتاب المكنون وأرسل السحاب الهتون وأخرج رطب الثمار من يابس الغصون وخلق الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون.

تكونت بقدرته الأشياء وتوالت برحمته الآلاء وانشقت بحكمته الأرض والسماء، وكتب بمشيئته السعادة والهناء فيرحم من عباده من يشاء وإليه تقلبون. الشافى صدور أولى الألباب النافى باتقان مصنوعاته كل شك وارتياب **﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾**[1].

أنشأ بحكمته أصناف المبتدعات، وقدر الأشياء من ماضٍ وآت وغفر بالمتاب سائر الخطيئات **﴿وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾**[2] مبدع الدهور بالأحداث ومصور الذكور والإناث وباعث من فى القبور فينهضون بالانبعاث **﴿ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾**[3].

---

(١) سورة الروم الآية ٢٠. (٢) سورة الشورى الآية ٢٥.

(٣) سورة يس الآية ٥١.

﴿وجعل الشمس سراجًا﴾[1] **﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا﴾**[2]. **﴿ولو نشاء لجعلناه أجاجًا فلولا تشكرون﴾**[3].

الكريم الشكور الرحيم الغفور المنزه فى أقضيته عن أن يظلم أو يجور **﴿الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾**[4] . مالك الأشياء بالطول والعرض وقبل من عباده السنن والفرض وإليه المآب والعرض. **﴿وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون﴾**[5].

أتقن خلق الإنسان وأبدع وركب فيه حركاته وأودع **﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾**[6]. أوضح سبيل الرشاد وبين مسالكه، وأسبغ على العباد نعمه المتداركة ونور وجوه الموحدين فهى مسفرة ضاحكة **﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة . هذا يومكم الذى كنتم توعدون﴾**[7]!!.

أرسل من المعصرات الماء إلى الأرض، وأنزل وأسبغ بفضله الآلاء، وحول وقضى على خلقه بما شاء وأجزل. **﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾**[8]. أتقن صنعة خلق العالم وأحكم وجاد عليهم بفائض رزقه، وأنعم ويدرك بهم السر المكنون المبهم **﴿لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾**[9]. رب المشرقين ورب المغربين ومنوّر الكون بالنيرين **﴿ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾**[10] أفاض على أوليائه من جزيل نعمائه فضلا ونوالا وأعد لأعدائه من عذابه وبالاً ونكالاً وحجبهم

---

(١) سورة نوح الآية ١٦.
(٢) سورة النبأ الآية ١٤.
(٣) سورة الواقعة الآية ٧٠.
(٤) سورة الأنعام الآية١.
(٥) سورة الروم الآية ٢٦.
(٦) سورة الأنعام الآية ٩٨.
(٧) سورة الأنبياء الآية ١٠٣.
(٨) سورة الأنبياء الآية ٢٣.
(٩) سورة النحل الآية ٢٣.
(١٠) سورة الذاريات الآية ٤٩.

عن إدراكه فلا يتوهمون له شبيها ولا مثالا ﴿**سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾[1].

ليس كمثله شيء ولا لنشر فضله طيّ ولا يعتري المهتدى إلى سبيله فيّ . . . ﴿**يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون**﴾[2] أحمده حمدا يتقرب به المتقربون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنفع قائلها يوم لا ينفع مال ولا بنون .

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله النبى العربى الأمين المأمون . . . صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون .

وبعد : فهذه ذكرى وعبر، والذكرى تنفع المؤمنين .

فصل
إياك والجبن وكن شجاعًا واعلم بأنه لا يملك الروح والرزق إلا الله تعالى

وعن هذا الداء الخطير وهو الجبن نقتطف كلمات للإمام الشيخ محمد عبده :

يقول رحمه الله تعالى : ما العلة فى إخلاد الجمهور الأعظم من بنى الإنسان إلى دنيات المنازل وقصورهم عن الوصول إلى ما أعدته لهم العناية ويستفزهم إليه الميل الغريزى خصوصًا وإن كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعده ووعيده ترجو ثوابًا على الباقيات الصالحات وتخشى عقابًا على ارتكاب الخطيئات . . . وتعترف بيوم العرض الأكبر

---

(١) سورة النحل الآية ١ .

(٢) سورة الروم الآية ١٩ .

يوم تجزى كل نفس بما كسبت **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾**[1] .

ماذا يقعد بالنفوس عن العمل الصالح ؟

ماذا ينحدر بها فى مزالق الزلل ؟

إذا ردت المسببات إلى أسبابها وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها : وجدنا لهذا علة هى أم العلل، ومنشأ يقرن به كل جلل وهو **(الجبن)** . . «وعن أضرار الجبن» قال : «الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها» .

هو الذى قطع روابط الأمم فحل نظامها . هو الذى أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم، وأضعف قلوب العالمين فسقطت بروجهم وهو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين.

يسهل على النفوس احتمال المذلة، ويخفف عليها مضض المسكنة، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل، يوطن النفس على تلقى الإهانة بالصبر والتذليل وبالجلد ويوطئ الظهور الجاثية لأحمال المصاعب أثقال مما كان يتوهم عروضه عند التحلى بالشجاعة والإقدام .

والجبن : يلبس النفس عاراً عند كل روح زكية وهمة عالية.

والجبن : مرض من الأمراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة للوجود التى جعلها الله ركنا من أركان الحياة الطبيعية. وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع إلى الخوف من الموت.

والموت: مآل كل حى ومصير كل ذى روح.

ليس للموت وقت يعرف ولا ساعة تعلم، ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر فى كل لحظة ولا يعلمه إلا مقدر الآجال . . جل

---

(١) سورة الزلزلة الآية [٧ ، ٨].

شأنه : ﴿**وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت**﴾[1]. يشتد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم والذهول عما أعده الله للإنسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة إذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله.

نعم يغفل الإنسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقيًا للحياة وهو الشجاعة والإقدام. سببًا فى الفناء يحسب الجاهل أن فى كل خطوة حتفًا، ويتوهم أن فى كل خطوة خطرًا مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الإنسانية وما ناله طلاب المعالى من الفوز بآمالهم، وما ذللوا من المصاعب فى سيرهم تكشف له أن تلك المخاوف إنما هى أوهام وأصوات غيلان ووساوس شياطين. غشيته فأدهشته، وعن سبيل الله صدته ومن كل خير حرمته.

الجبن: فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام لتغتال به نفوس الناس، وتلتهم به الأمم والشعوب. هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله.

هو علة لكل رذيلة ومنشأ لكل خصلة ذميمة لا شقاء إلا وهو مبدأه ولا فساد إلا وهو جرثومته ولا كفر إلا وهو باعثه وموجبه.

ممزق الجماعات ومقطع روابط الصلات، هازم الجيوش ومنكس الأعلام ومهبط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة!

والجبن: هو الذى يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب كما أنه هو الذى يبسط أيدى الأوفياء لدنيئة الارتشاء، وأن الخوف من الفقر يرجع فى حقيقته إلى الخوف من الموت وهو علة الجبن.

والجبن: عار وشنار على كل ذى فطرة إنسانية. خصوصًا الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويؤمنون أن ينالوا جزاء أعمالهم أجرًا حسنًا ومقامًا كريمًا.

---

(١) سورة لقمان الآية ٣٤.

واجب المسلمين

وعن واجب المسلمين قال: (ينبغي أن يكون أبناء الملة الإسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن) فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله وأنهم لا يبتغون إلا رضاه.

يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت : علامة الإيمان، وامتحن به الله قلوب المعاندين يقول فى ذم من ليسوا بمؤمنين: ﴿**ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب**﴾[١].

الإقدام فى سبيل الحق وبذل الأموال والأرواح فى إعلاء كلمته، أوسمة يتسم بها المؤمنون. لم يكتف الكتاب الإلهى بأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الأيدى، وعدّ ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح فى إعلاء كلمة الحق والعدل الإلهى بل عده الركن الوحيد الذى لا يعتد بغيره عند فقده. لا يظن أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامى وبين الجبن فى قلب واحد.

كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الإقدام، وأن عماده الإخلاص لله والتخلى عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه. المؤمن من يؤمن أن الآجال بيد الله يصرّفها كيف يشاء، ولا يفيده التباطؤ عن الفروض زيادة فى الأجل ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه.

المؤمن من لا ينتظر بنفسه إلاّ إحدى الحسنيين إما أن يعيش سيداً عزيزا وإما أن يموت مقرباً سعيداً . وتصعد روحه إلى أعلى عليين ويلتحق بالأكرمين والملائكة المقربين.

---

(١) سورة النساء الآية ٧٧.

الجبن والإيمان

من يتوهم أنه يجمع بين (الجبن) وبين الإيمان بما جاء به حبيبنا محمد ﷺ فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه، بل هو ليس من الإيمان فى شىء. كل آية من القرآن تشهد على (الجبان) بكذبه فى دعوى الإيمان.

لهذا نؤمل من ورثة الأنبياء (العلماء) أن يصدعوا بالحق ويذكروا بآيات الله وما أودع الله فيها من الأمر بالإقدام لإعلاء كلمته والنهى عن التباطؤ والتقاعد فى أداء ما أوجب الله من ذلك.

واجب العلماء

وأغلب الظن عندى أن العلماء إذا قاموا بهذه الفريضة فريضة (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) زمنًا قليلاً ووعظوا الكافة يتبين معانى القرآن الشريف وإحيائها فى نفوس المؤمن لرأينا لذلك أثرا فى هذه الملة السمحة يبقى ذكره أبد الدهر لشهدنا له يوما تسترجع فيه مجدها فى هذه الدنيا وهو مجد : الله أكبر.

فالمؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكن فى أفئدتهم من آثار العقائد: لا يحتاجون إلا لقليل من التنبيه وبشىء يسير من التذكير فينهضوا نهضة الأسود فيستردوا مفقودًا ويحفظوا موجودًا وينالوا عند الله مقامًا محمودًا .

فصل

مرض الرسول ﷺ ووفاته

ذكر كتاب السيرة أن رسول الله ﷺ بعد أن عاد من حجة الوداع أمر بتجهيز جيش عروم إلى الشام جعل فيه المهاجرين الأولين (منهم: أبو بكر الصديق، وعمررضى الله عنهما) وأمر على الجيش (أسامة بن زيد بن حارثة) وكان أسامة يومئذ حدثًا لا يكاد يعدو العشرين من سنه،

والنبى ﷺ إنما أراد بتعيين (أسامة) أن يقيمـه مقام أبيه الذى استشهد فى موقعة (مؤتة) وأن يجعل له من فخار النصر ما يجزى به ذلك الاستشهاد وما يبـعث إلى جانب ذلك فى نفس الشـباب الهمـة والحميـة ويعودهم الاطلاع بأعباء أجسم التبعات، وخرج (أسامة) والجيش معه إلى (الجرف) يتجهزون للسفر إلى (فلسطـين) وبينما هم كذلك إذ حال مرض الرسول ﷺ ثم اشتداد المرض به دون مسيرهم.

وقد يسـأل إنسان : كـيف يحول مرض الرسـول ﷺ دون مسـيرة جيش أمر بجهازه وسفره؟ ونحن نقول: إن مسيرة جيش إلى الشام يقطع البيد والصـحارى أيامًا طويلة ليست بالأمـر الهين، ولـم يكن يسهل على المسلمين والنبى أحب إلـيهم من أنفـسهم أن يتـركـوا المدينة وهو يشكو المرض وهـم يعلمـون ما وراء هذا المرض، ثم إنهم لم يعـرفوا قط - من قبل- أنه شكا مـرضًا ذا بال. إذ أن حيـاته وتعاليمـه كانت تنأى به عن المرض فهذا الزهد فى الطعـام ونيل القليل منه، وهذه البساطة فى الملبس والعيش، وهذه النظافـة التامة نظافـة يقتضـيها الوضـوء والسواك الدائم (وكان يحـبه ﷺ ويحرص عليه حـتى ليقول : إنه لولا خـوفه أن يشق على قومه لفرض عليهم السواك فى اليوم خمس مرات).

هذا النشاط الدائم - نشـاط العبادة - من ناحية، ونـشاط الرياضة من ناحية أخرى. وهذا القصد فى كل شىء وفى الملذات قبل كل شىء. وهذا السمـو عن عبث الأهواء . وهذه الرفـعة النفسـية التى لا تدانيـها رفعة. وهذا الاتصـال الدائم بالحياة وبالكون فى خير صـور الحياة وأدق أسرار الكون.

هذا كله يجنب صاحبه المرض، ويجـعل الصحة عظيم حظه. فإذا كـان سليم التكوين، قـوى الخلق - كمـا كان رسـول الله ﷺ - جفـاه المرض ولـم يعرف إليه سبيلاً.

فإذا مرض كان طبيـعيًا أن يخاف محبوه وأصحابه وكـان طبيعيًا أن

يخافوا وهم قد رأوا ما عاناه من مصاعب الحياة خلال ثلاث وعشرين سنة متتابعة، لاقى فيها من الشدائد ما تنوء الجبال عن حمله فى شتى سبل الحياة. وأى موقف أشد من موقفه (يوم أحد) . . حين ولى المسلمون وسار وهو يصعد الجبل ورجال قريش يشتدون فى تتبعه ويرمونه، حتى كسرت رباعيته.

وأى موقف أشد هولا من موقعة (يوم حنين) حين ولى المسلمون فى عماية الصبح مولية الأدبار وهو ينادى فى المسلمين (إلى أين . . ؟ إلى أين . . ؟ إلىّ . . . إلىّ . . .) حتى عادوا وحتى انتصروا.

وأى مجهود أشق من مجهود الرسالة والوحى، وهذا المجهود الروحى المضنى فى اتصاله بسر الكون والملأ الأعلى ؟ ﴿**يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً . إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً . إن ناشئة الليل هى أشد وطئًا وأقوم قيلاً**﴾[1].

وهذا المجهود فى تلقى أوامر الله والذى روى بسببه عن النبى ﷺ أنه قال: (شيبتنى هود وأخواتها) . . قيل: وما شيبك فيهما قال : قوله تعالى ﴿**فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا . إنه بما تعملون بصير**﴾[2].

رأى أصحاب رسول الله ﷺ هذا كله، ورأوه يحمل العبء صلبا قويًا، لا يعرف المرض إليه طريقًا فإذا مرض بعد ذلك: فمن حق أصحابه أن يخافوا وأن يتمهلوا فى السير من معسكرهم (بالجرف) إلى الشام حتى تطمئن نفوسهم إلى ما يكون من أمر الله فى نبيه ورسوله ﷺ.

وهذا حادث وقع جعلهم أشد خوفًا: فقد استيقظ رسول الله ﷺ أول ما بدأ يشكو وطال أرقه وحدثته نفسه أن يخرج فى ليل تلك الأيام

---

(١) سورة المزمل الآيات [١ :٦].

(٢) سورة هود الآية ١١٢.

الرقيقة النسيم فيما حـول المدينة . . وخرج ولم يستصحب معه أحداً إلا مولاه (أبا مويهبة) .

أفتدرى أين ذهب؟

ذهب إلى (بقيع الغرقد) حيث مقابر المسلمين على مقربة من المدينة فلما وقف بين المقابر قال يـخاطب أهلها:(هنيئًا لكم ما أصبـحتم فيه مما أصبح الناس فيه أقبلت الفتن تقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها والآخرة شر من الأولى).

وقد حـدث «أبو مويهبـة» أن النبى ﷺ قال له أول ما بلغـا (بقيع الغرقـد): (إنى أمرت أن اسـتغـفر لأهل هذا البـقيع . . فانطلـق) فلما استغفر لهم وآن له أن يؤوب: أقبل على «أبى مويهبة» فقال له:

(يا أبا مويهبـة: إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلـود فيها، ثم الجنة فخيرت بين ذلك بين لقاء ربى والجنة).

قال أبو مويهـبة: بأبى أنت وأمى فخذ مفـاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة.

قال سيدنا رسول الله ﷺ: (لا والله يا أبا مو يهبة لقد اخترت لقاء ربى والجنة).

أصبح رسـول الله ﷺ فى الغداة، ومر بعائشـة -رضى الله عنها- فوجدها تشكو صـداعًا فى رأسها وتقول: وارأساه! فقـال لها: وقد بدأ يحس ألم المرض: بل أنا والله يا عائشة . . وارأساه!.

لكن شكواه لم يكن قد اشتد إلى الحد الذى يلزمه الفراش أو يحول بينه وبين ما عود أهله وأزواجه من تلطف.

وكررت عائشة - -رضى الله عنهـا- - الشكوى من صداعها حين سمـعته يشكو به فـقال لها:(وما لـو مت قبلى، فقمـت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك)؟ .

وأثارت هذه الملاحظة حب الحياة فى نفس عائشة -رضى الله عنها-

فأجابت: (وليكن ذلك حظ غيري! والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك: لقد رجعت إلى بيتك فأعرست فيه ببعض نسائك). وتبسم النبي ﷺ.

فلما سكن عنه الألم بعض الشيء: قام بتفقد حال أهله، لكن الألم جعل يعاوده، فتزداد به شدته حتى إذا كان في بيت أم المؤمنين (ميمونة بنت الحارث) -رضي الله عنها- لم يطق، فغالبه الألم ورأى نفسه في حاجة إلى تمريض.

هنالك دعا نساءه إليه في بيت ميمونة واستأذنهن بعد أن رأين حاله أن يمرض في بيت عائشة وأذن له أزواجه في الانتقال.. فخرج عاصبًا رأسه يعتمد في مسيرته على (علي بن أبي طالب) -كرم الله وجهه- وعلى عمه (العباس) وقدماه لا تكادان تحملانه حتى دخل بيت (عائشة) -رضي الله عنها- وزادت به الحمى في الأيام الأولى من مرضه حتى لكان يشعر كأن به منها لهبًا.

لكن ذلك لم يكن يمنعه ساعة تنزل به الحمى من أن يمشي إلى المسجد ليصلي بالناس. وظل على هذا عدة أيام لا يزيد على الصلاة ولا يقوى على محادثة أصحابه ولا خطابهم.

ولما اشتدت عليه الحمى أمر أزواجه أن يصببن عليه بعض قرب الماء.. ففعلن ذلك ثم قام فلبس ثيابه وعصب رأسه وخرج إلى المسجد وجلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على أصحاب (أحد) واستغفر لهم وأكثر من الصلاة عليهم ثم قال: (أيها الناس أنفذوا بعث «أسامة» فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقًا لها). ثم سكت هنيهة خيم الصمت على الناس أثناءها ثم عاد إلى الحديث فقال: (إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده.. فاختار ما عند الله)!!.

وسكت الرسول ﷺ من جديد، والناس كأنما على رؤوسهم الطير.. ولكن أبا بكر -رضي الله عنه- أدرك أن النبي ﷺ إنما يعني

بهذه العبارة الأخيرة نفسه، فلم يستطع لرقة وجدانه وعظيم صداقته لرسول الله ﷺ أن يمسك عن البكاء فأجهش وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا!.

وخشى رسول الله ﷺ أن تمتد عدوى التأثر من أبى بكر إلى الناس فأشار إليه قائلاً: (على رسلك!!) ثم قال: (إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه وإنى لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده).

ونزل الرسول ﷺ عن المنبر يريد أن يعود بعد ذلك إلى بيت عائشة على أنه لم يلبث أن التفت إلى الناس وقال: (يا معشر المهاجرين: استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد وإن كانوا عيبتى «يعنى خاصتى وموضع سرى» التى أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم).

ودخل رسول الله ﷺ بيت عائشة رضى الله عنها. أى مجهود بذل فى هذا اليوم ؟..

إنه الرسول الذى يشغله أكبر الشواغل. جيش «أسامة» .. ومصير الأنصار من بعده.. ومصير هذه الأمة التى ربط الإسلام بأقوى الأواصر وأمتن الروابط بينها. لذلك حاول أن يقوم فى غده ليصلى بالناس إماماً كعادته فإذا هو لا يقدر إذ ذاك قال: (مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس). قالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن قال رسول الله ﷺ:

(مروه فليصلِّ بالناس).

فكررت عائشة -رضى الله عنها- وقالت: فلو أمرت عمر؟ فصاح رسول الله ﷺ والمرض يهزه: إنكن صواحب يوسف: مروه فليصلِّ بالناس، وقام أبو بكر فصلى بالناس إماماً !!.

وبلغت بالرسول ﷺ شدة المرض حدًّا أمله ذلك أن الحمى زادت به حتى لقد كانت عليه قطيفة فإذا وضع أزواجه وعواده أيديهم من فوقها شعروا بحر هذه الحمى المضنية.

وكانت ابنته فاطمة تعوده كل يوم وكان يحبها .. ذلك الحب الذى يمتلئ به وجود الرجل للابنة الوحيدة الباقية له من كل عقبه... لذلك كانت إذا دخلت على النبى ﷺ قام إليها وقبلها وأجلسها فى مجلسه!!

فلما بلغ منه المرض هذا المبلغ: دخلت عليه فقبلته فقال: (مرحبًا يا ابنتى ..) ثم أجلسها إلى جانبه وأسر إليها حديثًا فبكت ثم أسرَّ إليها حديثا آخر فضحكت.. فسألتها عائشة فى ذلك، فقالت: ما كنت أفشى سر رسول الله ﷺ .. فلما مات ذكرت أنه أسرَّ إليها أنه سيقبض فى مرضه هذا فبكت، ثم أسرَّ إليها أنها أول أهله يلحقه فضحكت!!.

وكانوا لاشتداد الحمى به يضعون إلى جواره إناءً باردًا من ماء بارد، فما يزال يضع يده فيه، ويمسح بها على وجهه ﷺ.

وكانت الحمى تصل به حتى يغشى عليه أحيانًا ثم يفيق وهو يعانى منها أشد الكرب.. حتى قالت فاطمة يومًا وقد هز الألم نفسها لشدة ألم أبيها .. واكرب أبتاه!

فقال: (لا كرب على أبيك بعد اليوم)!

يريد أنه سينتقل من هذا العالم: عالم الأسى والألم إلى الرفيق الأعلى من الجنة.

وتناقل الناس ما بلغ من اشتداد المرض بالنبى ﷺ حتى هبط «أسامة» وهبط الناس معه من (الجرف) إلى المدينة ودخل أسامة على النبى ﷺ فى بيت عائشة -رضى الله عنها- فإذا هو قد أصمت فلا يتكلم، فلما أبصر أسامة جعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة علامة الدعاء له.

المال الذى تركه النبى ﷺ: ومما أثر عنه ﷺ أنه كان فى بيته سبعة

دنانير أول ما اشتد به المرض خاف أن يقبضه الله إليه وما تزال باقية عنده . . فأمر أهله أن يتصدقوا بها. . لكن اشتغالهم بتمريضه والقيام على خدمته واطراد المرض فى شدته أنساهم تنفيذ أمره.

فلما أفاق يوم الأحد الذى سبق وفاته من إغمائه سألهم: مافعلوا بها؟ فأجابت عائشة: إنها ما تزال عندها فطلب إليها أن تحضرها. ووضعها فى كفه ثم قال: ما ظن محمد بربه لو لقى الله وعنده هذه ؟!! ثم تصدق بها جميعًا على فقراء المسلمين. وقضى رسول الله ﷺ ليله هادئا مطمئنًا نزلت عنه الحمى.

وبلغ من ذلك أن استطاع أن يخرج ساعة الصبح إلى المسجد عاصبًا رأسه معتمدًا على (على بن أبى طالب) و(الفضل بن العباس) -رضى الله عنهما-.

وكان أبو بكر ساعتئذ يصلى بالناس. فلما رأى المسلمون النبى ﷺ وهم فى صلاتهم قد خرج إليهم: كادوا يفتنون فرحًا به فتفرجوا (أى وسّعوا). . فأشار إليهم أن يثبتوا على صلاتهم. وسر رسول الله ﷺ بما رأى من ذلك أكبر سرور واغتبط له أعظم الغبطة.

وأحس أبو بكر -رضى الله عنه- بما صنع الناس وأيقن أنهم لم يفعلوه إلا لرسول الله ﷺ فنكص عن مصلاه يريد أن يتخلى لرسول الله ﷺ عن مكانه. فدفعه الرسول ﷺ وقال له: (صلِّ بالناس) وجلس هو إلى جنب أبى بكر -رضى الله عنه- فصلى قاعدًا عن يمينه.

فلما فرغ من صلاته: أقبل على الناس رافعًا صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد فقال: (أيها الناس: سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم وإنى والله ما تمسكون على بشىء: إنى والله لم أحل إلا ما أحل القرآن ولا أحرم إلا ما حرم القرآن لعن الله قومًا اتخذوا قبورهم مساجد).

ولقد عظم فرح المسلمين بما رأوا من مظاهر التقدم فى صحة النبى

ﷺ حتى أقبل عليه أسامة بن زيد يستأذن فى مسيرة الجيش إلى الشام حتى مثل بين يديه أبو بكر قائلاً: يا نبى الله إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب واليوم يوم (بنت خارجة) يعنى زوجته، أفآتيها؟ فأذن له النبى ﷺ فى ذلك. وانطلق أبو بكر إلى السنح (مكان بأطراف المدينة) حيث تقيم زوجه وانصرف عمر وعلى لشئونهما، وتفرق المسلمون، وكلهم سعيد مستبشر بعد أن كانوا إلى أمس عابسين مغمومين لما يتصل لهم من أخبار النبى ﷺ ومرضه واشتداد الحمى به وإغمائه.

وعاد هو إلى بيت عائشة والسرور لرؤية هؤلاء المسلمين الذين قد امتلأ بهم المسجد يفعم قلبه وإن كان يحس جسمه ضعيفًا غاية الضعف بينما عائشة تنظر إلى هذا الرجل العظيم الذى يمتلئ قلبها إكبارًا له وإجلالاً وقد ملكها الإشفاق لترد إليه القوة والحياة!!.

لكن خروج النبى ﷺ إلى المسجد لم يكن إلا الصحو الذى يسبق الموت.. فقد كان يزداد بعد دخوله إلى البيت فى كل لحظة ضعفًا وكان يرى الموت يدنو ولم يبق لديه ريب فى أنه لم يبق له فى الحياة إلا سويعات.

تقول أرجح الروايات: إنه ﷺ دعا فى هذا اليوم القائظ من أيام شبه الجزيرة العربية بإناء فيه ماء بارد كان يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه، وإن رجلاً من آل أبى بكر -رضى الله عنه- دخل على عائشة -رضوان الله عليها- وفى يده سواك فنظر إليه رسول الله ﷺ نظرًا دل على أنه يريده فأخذته أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها- من هذا الرجل ومضغته له حتى لان وأعطته إياه فاستن به.

وإنه لما شق عليه النزع: توجه إلى الله يدعوه: (اللهم أعنى على سكرات الموت)!! قالت عائشة -رضى الله عنها- وكان رأس النبى ﷺ وسلم فى هذه الساعة فى حجرها: (وجدت رأس رسول الله ﷺ يثقل فى حجرى فذهبت أنظر فى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول:

(بل الرفيق الأعلى من الجنة) قلت: خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق)!!.

وقبض رسول الله ﷺ:

دفن الرسول ﷺ اختار الرسول ﷺ الرفيق الأعلى، وفوجئ المسلمون بهذا النبأ الأليم وهم بالمسجد فقد رأوه ﷺ فى الصباح وكل شيء يدل على أنه عوفى.. مما جعل أبا بكر يذهب إلى زوجه (بنت خارجة) بالسنح! لذلك أسرع عمر -رضى الله عنه- إلى حيث كان جثمان النبى ﷺ وهو لا يصدق أنه مات .. ذهب فكشف عن وجهه ﷺ فألفاه لا حراك به فحسبه فى غيبوبة لابد أن يفيق منها.

وعبثًا حاول (المغيرة بن شعبة) إقناعه بالحقيقة الأليمة.. فقد ظل مؤمنًا بأن رسول الله ﷺ لم يمت فلما الح (المغيرة) عليه قال له عمر: كذبت!! وخرج معه إلى المسجد وهو يصيح: أن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران.. فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل إنه مات والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى عليه السلام فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه قد مات.

واستمع المسلمون بالمسجد إلى هذه الصيحات من جانب عمر -رضى الله عنه- يرسل الواحدة تلو الأخرى، وهم فى حال أشبه شيء بالذهول.. ألا إن كان محمد قد مات حقًا! فواحر قلباه! وياللهم الناصب لأولئك الذين رأوه وسمعوا له وآمنوا بالله الذى بعثه بالهدى ودين الحق.. هم يذهل القلب ويذهب باللب.

أما إن كان محمد قد ذهب إلى ربه كما يقول عمر - فذلك أدعى للذهول.. وانتظار أوبته حتى يرجع كما رجع موسى: أشد إمعانًا فى العجب !!.

لذلك احاطت جموعهم بعمر -رضى الله عنه- وهم أدنى إلى

تصديقه وإلى الإيمان بأن رسول الله ﷺ لم يمت!!

فكيف يموت وقد كان معهم منذ ساعات يرونه ويسمعون إلى صوته الجهورى وإلى دعائه واستغفاره؟ وكيف يموت وهو خليل الله الذى اصطفاه لتبليغ رسالته وقد دانت له العرب كلها وبقى أن يدين له (كسرى) وأن يدين له (هرقل) بالإسلام؟!!.

وكيف يموت وهو هذه القوة التى هزت العالم مدى عشرين سنة متوالية وأحدثت فيه أعنف ثورة روحية عرفها التاريخ.

النساء هناك مازلن يبكين علامة أنه مات وعمر -رضى الله عنه- ههنا بالمسجد ما فتئ ينادى بأنه لم يمت وبأنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وبأن الذين يقولون بموته: إنما هم المنافقون .. هؤلاء المنافقون الذين سيضرب محمد ﷺ على أيديهم وأعناقهم بعد رجعته .!!

أى الأمرين يصدق المسلمون؟

لقد أخذهم الفزع أول الأمر ثم مازالت بهم أقوال عمر -رضى الله عنه- تبعث إلى نفوسهم الأمل برجعة النبى ﷺ حتى كادوا يصدقون أمانيهم ويصورون منها لأنفسهم حقائق يكادون يستريحون إليها.

وإنهم لكذلك: إذ أقبل أبو بكر آتيًا من (السنح) وقد بلغه الخبر الفادح وبصر بالمسلمين وبعمر يخطبهم.. فلم يقف طويلا ولم يلتفت إلى شىء، بل قصد إلى بيت عائشة -رضى الله عنها- فاستأذن فدخل فألفى النبى ﷺ مسجّى فى ناحية من البيت عليه برد حبرة فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل عليه يقبله وقال: ما أطيبك حيًا.. وما أطيبك ميتًا..!!

ثم إنه أخذ رأس النبى ﷺ وسلم بين يديه وحدق فى معارف وجهه وقال: (بأبى أنت وأمى! أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدًا).

ثم أعاد الرأس الشـريف إلى الوسادة ورد البرد على وجهـه وخرج وعمـر ما يزال يكلم الناس ويقـنعهم بأن رسول الله ﷺ لـم يمت وفسح الناس لأبى بكر -رضى الله عنه- طريقًا..

فلما دنا من عـمر ناداه: على رسلك يا عـمر! أنصت! لكن عـمر أبى أن يسكت أو ينصت واستمـر يتكلم فأقبل أبو بكر -رضى الله عنه- على الناس وأشـار إليهم بأنه يكـلمهم... ومن.. كـأبى بكر فى هذا المقام؟.. أليس هو الصـديق صفى النبى ﷺ ومن لو اتخـذ النبى خليلاً غير ربه لاتخذه خليلاً.

لذلك أسرع الـناس إلى تلبية دعـوته وانصرفـوا إليه عن عـمر.. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

(أيها الناس: من كان يعبـد محمدًا فإن محمـدًا قد مات ومن كان يعبد الله فـإن الله حى لا يموت). ثم تلا قوله تعالى: **﴿وما محمد إلا رسول قـد خلت من قبله الرسل أفإن مـات أو قتل انقلبتم على أعـقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزى الله الشاكرين﴾**[1].

وكان عـمر -رضى الله عنه- قد أنصـت حين رأى انصراف الناس إلى أبى بكر.

فلمـا سمع أبا بكر يتلو هذه الآية: خـر إلى الأرض.. ما تحـمله رجلاه موقنًا أن رسـول الله ﷺ قد مات.. وأما الناس فـقد أخذوا من قبل بأقوال عمر -رضى الله عنه- حتى لقـد ألفوا أنفسهم إذ سمعوا هذه الآية يتلوها أبو بكر كأنهم لم يكونوا يعلمون أنها نزلت.. وكذلك زايل القلوب كل شىء فى أن محمدًا قـد اختار جوار الرفيق الأعلى، وأن الله قد قبضه إليه!!. أفكان عمـر غاليًا حين اقتنع بأن محمدًا لم يمت وحين دعا الناس إلى مثل اقتناعه؟..

كـلا!..

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

فإن المصاب الفادح والخطب الجسيم قد استولى على جنبات نفسه وملك عليه فؤاده.. إنه الرجل الذى عاش فى كنف محمد ﷺ وظله.. إنه الرجل الذى كان قبل الإسلام جبار الجاهلية فأصبح بعد الهداية عملاق الإسلام!.

إنه فقد ذلك القلب الكبير الذى أفاض عليه من هداه وإرشاده وتوجيهه وتعليمه ما جعل منه (عمر بن الخطاب) الذى وقف يوم الهجرة بعدما طاف بالبيت يخاطب الملأ من قريش ويقول:

من أراد أن تثكله أمه أو ييتم ولده أو ترمل زوجه فليتبعنى وراء هذا الوادى .. فلم يتبعه أحد.. إنه عمر الذى كان لا يطيق مرور نسمة تؤذى رسول الله ﷺ إلا ويصيح بصوته القوى:

يا رسول الله: مرنى بقتل هذا المنافق!!

فما بالك .. ينظر حواليه: فلا يرى الرسول بجانبه وينظر فوقه فيرى النجوم قد خر من بينها البدر.

إذن ... فلا لوم، لأن عمر قد غشيته غاشية من هول المصاب. وهكذا لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى. وقد صدق رب العزة حيث يقول له: **﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد.. أفإن مت فهم الخالدون. كل نفس ذائقة الموت. ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾**[1].

وقد صدق الله تعالى إذ يقول له:

﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾[2].

فيا أخا الإسلام

لا خلود لأحد على هذه الأرض.

جدد السفينة .. فإن البحر عميق.

وأكثر الزاد .. فإن السفر طويل.

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان [٣٤ ، ٣٥].

(٢) سورة الزمر الآية ٣٠.

وأخلص العمل . . فإن الناقد بصير.
وخفف الحمل . . فإن العقبة كئود.
لقد مات خير خلق الله وصفوته من عباده وإنا به لاحقون فأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة.
لقد انتقل سيد المرسلين صلوات أبى وسلامه عليه إلى دار الحق.
واعمل للدنيا بقدر مقامك فيها.
واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها.
واعمل للجنة بقدر اشتياقك إليها.
واعمل للنار بقدر صبرك عليها.
واعلم بأن من أراد مؤنسًا: فالله يكفيه.
ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه.
ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه.
ومن أراد واعظًا . . فالموت يكفيه.
ومن لم يكفه شيء من هذا . . فإن النار تكفيه!!.

زيارة القبور

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم. إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾[1].

اعلم أخى أن القبر أول درجات الآخرة.
فعندما يموت العبد فإنه يضع قدمه على عتبة اللانهائية. ومن هنا: يدخل عالم البرزخ.
وعالم البرزخ: محيط أعنف من أن يعجز عبابَه سباحٌ ماهر!!

(١) سورةا الحج الآيتان [١ ، ٢].

قال جل شأنه: ﴿**حتى إذا جاء أحدهم الموت.. قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحًا فيما تركت . كلا إنها كلمة هو قائلها،ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون**﴾(١). والبرزخ هنا: هو الحاجز الزمانى الذى يفصل ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

﴿**كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون**﴾(٢). هذه الآية الكريمة جمعت الأزمان الثلاثة فى جلال وجمال ... جمعت الآزال والآماد والآباد!.

﴿**يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث .. فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم .. ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم.. ومنكم من يتوفى .. ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة .. فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت، وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شىء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور**﴾(٣).

نــــداء القبـــــر

أتدرى - يا ابن آدم - ماذا يقول القبر بلسان حاله؟ إنه يناديك ويخاطبك بكلمات ينفطر لها القلب وينخلع من هولها الفؤاد.

روى عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة ، فجلس إلى قبر منها فقال: ما يأتى على هذا القبر يوم إلا وهو ينادى بصوت ذلق طلق: يا ابن آدم: نسيتنى ألم تعلم أنى بيت الوحدة؟ وبيت الغربة؟ وبيت الوحشة؟ وبيت الدود؟ وبيت الضيق؟ إلا

---

(١) سورةا المؤمنون الآيتان [٩٩ ، ١٠٠].
(٢) سورة البقرة الآية ٢٨.
(٣) سورة الحج الآيات [٥ : ٧].

من وسعنى الله عليـه؟ قال رسول الله ﷺ: «القبر إمـا روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»- رواه الطبرانى.

ولقد ركز رسول الله ﷺ تركيزًا قويًا على هذه الحقيقة العليا، وهى ذكر الموت، كـما أخبـرنا بذلك عبـد الله بن عمر -رضى الله عـنهمـا- قال:

أتيت النبى ﷺ عاشر عشرة، فقام رجل من الأنصار فقال:

يا نبى الله: من أكيس الناس، وأحـزم الناس؟ قال: أكثـرهـم ذكرًا للموت وأكثرهم استعدادًا للمـوت أولئك الأكياس.. ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة» - رواه ابن أبى الدنيا.

وفى رواية ابن ماجه، لفظه: «أن رجلاً قال للنبى ﷺ: أى المؤمنين أفضل؟ قـال: أحسنهم خلقًـا. قال فأى المؤمنين أكـيس؟ قال: أكـثـرهـم للموت ذكرًا، وأحسنهم لما بعده استعدادًا.. أولئك هم الأكياس). ولقد قلت لنفسى وأنا بين المقابر:

هل رأيت الأمن والراحة إلا فى الحفائر؟

فأشارت فإذا للدود عبث فى المحاجر

ثم قالت: أيها السائل إنى لست أدرى

انظرى: كيف تساوى الكل فى هذا المكان

وتلاشى فى نفايا العبد رب الصولجان!

والتقى العاش والغالى.. فما يفترقان!

أفهذا منتهى الأمر؟ فقالت: لست أدرى

أيها القبر تكلم وأخبرينى يا رمام.

هل طوى أحلامك الموت وهل مات الغرام

من هو الميت.. من عام.. ومن مليون عام

أتمنى: أننى أدرى: ولكن لست أدرى.

حكمة زيارة القبور

زيارة القبور مستحبة للرجال:

لما رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن عبد الله بن بريدة عن أبيه: أن النبى ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها. فإنها تذكركم الآخرة».

وكان النهى ابتداء، لأنهم كانوا لا يتورعون فيه عن هجر الكلام وفحشه فلما دخلوا فى الإسلام واطمأنوا به وعرفوا أحكامه.. أذن لهم الشارع بزيارتها. وعن أبى هريرة -رضى الله عنه-: أن النبى ﷺ زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله. فقال النبى ﷺ: «استأذنت ربى أن أستغفر لها فلم يؤذن لى واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لى فزوروها فإنها تذكر الموت» - رواه أحمد ومسلم وأهل السنن إلا الترمذى.

صفة الزيارة الشرعية

إذا وصل الزائر إلى القبر: استقبل وجه الميت وسلم عليه ودعا له.. وقد جاء فى ذلك: عن بريدة قال: كان النبى ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.. أنتم فرطنا ونحن بكم تبع ونسأل الله لنا ولكم العافية» - رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

وعن ابن عباس: أن النبى ﷺ مرّ بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال: «السلام عليكم يا أهل القبور.. يغفر الله لنا ولكم.. أنتم سلفنا ونحن بالأثر» - رواه الترمذى.

وعن عائشة -رضى الله عنها- قالت: «كان النبى ﷺ كلما كان ليلتها يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون، غداً مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.. اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» - رواه مسلم.

وروى عنها قالت : قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله، قال:

«قـولى: الســلام على أهل الـديار من المؤمنين والمسلـمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمتأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون».

وأما ما يفعله بعض من لا علم لهم من التمسح بالأضرحة وتقبيلها والطواف حولها، فهو من البدع المنكرة التى يجب اجتنابها ويحرم فعلها.

فإن ذلك خاص بالكعبة. زادها الله شرفًا: ولا يقاس عليها قبر نبى ولا ضريح ولى، الخير كله فى الاتباع والشر كله في الابتداع.

قال ابن القيم:

كـان النبى ﷺ إذا زار القـبور يزورها لـلدعاء لأهلهـا، والتـرحم عليهم والاستغفار لهم فأبى المشركون إلا دعاء الميت والإقسام على الله به وسؤاله الحوائج والاستعـانة به والتوجه إليه.. بعكس هديه ﷺ .. فإنه هدى توحـيـد، وإحـسـان إلى الميت، وهدى هؤلاء شـرك وإسـاءة إلى نفوسهم وإلى الميت.

وهم ثلاثة أقسـام: إما أن يدعوا للمـيت، أو يدعو ربه، أو عنده. ويرون أن الدعـاء عنده أولى من الدعـاء فى المساجـد. ومن تأمل هدى رسول الله ﷺ وأصحابه تبين له الفرق بين الأمرين.

ما ينفع الميت من الأعمال

من المتفق عليه أن الميت ينتـفع بما كان سببًا فيـه من أعمال البر فى حياته: لما رواه مسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد بار يدعو له» - رواه ابن ماجه.

وعنه: أنه ﷺ قال: «إن مما يـلحق المؤمن من عمله وحسـناته بعد موته: علمه ونشره، أو ولدًا صالحًا تركه، أو مـصحفًا ورثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أكـراه، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته».

وروى مسلم عن جرير بن عـبد الله: أن النبى ﷺ قال: «من سن فى الإسلام سنة حسنة: فله أجرها وأجر من عـمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم .. ومن سن فى الإسـلام سنة سيئة: كـان عليه وزرها ووزر من يعـمل بهـا من بعده، من غـيـر أن ينقص من أوزارهم شىء».

ما ينفعه من أعمال غيره

- يتساءل العلامة ابن القيم فيقول:

- هل تنتفع أرواح الموتى بشىء من سعى الأحياء .. أم لا؟

ثم يجيب قائلا: إنها تنتفع من سعى الأحياء بأمرين مجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير.

أحدهما: ما نسب إلى الميت فى حياته.

والثانى: دعاء المسلمين له واستغفارهم له، والصدقة أو الحج!

ويرى الإمـام أحمـد، ومـعه جـمـهور السـلف: وصول الصـوم والصلاة، وقراءة القرآن، والذكر.

وقـد نص على هذا: الإمـام أحمـد فى رواية مـحمـد بن يحـيى الكحال .. قال:

قيل لأبى عـبدالله: الرجل يعـمل الشىء من الخيـر: من صلاة أو صدقة، أو غير ذلك، فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه؟

قال: (الميت يصل إليه كل شىء: من صدقـة أو غيره) وقال أيضًا: اقرأ آية الكرسـي ثلاث مرات و«قل هو الله أحد» وقل: اللـهم إن فضله لأهل المقابر.

وهناك آراء أخـرى فى هذه المسـألة، رأينا الإمـساك عن ذكـرها.. تيسيرًا على القارئ.

الأدلة على ما سبق

الدليل على انتـفاعه بما نسـبب إليه فى حـياته: مـا رواه مسلم فى

صحيحه من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». فاستثناء هذه الثلاث من عمله: يدل على أنها منه، فإنه هو الذى تسبب فيها.

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ «إنما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علمه ونشره أو ولدا صالحا تركه أو مصحفا ورَّثه أو مسجدًا بناه أو بيتًا لابن السبيل بناه أو نهرًا أكراه أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته».

وفى المسند عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم .. ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من يعمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء».

وقد دل على هذا: قوله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل» فإذا كان هذا فى العذاب والعقاب، ففى الفضل والثواب أولى وأحرى.

ومن الأدلة كذلك: ما نطق به القرآن الكريم وأتت به السنة المطهرة ورآه الإجماع.

أما القرآن:

فقوله تعالى: ﴿**والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان**﴾[1]. فأثنى الله سبحانه وتعالى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء: إجماع الأمة على الدعاء له فى صلاة الجنازة.

---

(١) سورة الحشر الآية ١٠.

وفى السنن:

من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء».

وفى صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك قام النبى ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول: «اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله وأوسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس وأبدله دارًا خيرًا من داره وأهلاً خيرًا من أهله وزوجًا خيرًا من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار».

وفى السنن أيضًا عن واثلة بن الأسقع قام ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته يقول: اللهم إن فلان بن فلان فى ذمتك وحبل جوارك، فقه من فتنة القبر وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحق فاغفر له وارحمه إنك أنت الغفور الرحيم».

ومن حديث عثمان بن عفان -رضى الله عنه- قال: كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل». وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما فى صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصين قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . . نسأل الله لنا ولكم العافية».

وفى صحيح مسلم أن عائشة -رضى الله عنها- سألت النبى ﷺ كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبور؟ قال: قولى: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، فيرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون» وفى صحيح مسلم أيضًا عنها -رضوان الله عليها- أن رسول الله ﷺ خرج فى ليلتها من آخر الليل إلى البقيع

فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل الغرقد».

وقد جاء أن الله يرفع درجة العبد فى الجنة فيقول: أنى لى هذا؟ فيقال: بدعاء ولدك لك.

وصول ثواب الصدقة

عقد العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالى- فصلاً فى ذلك فقال: وأما وصول ثواب الصدقة: ففى الصحيحين عن عائشة -رضى الله عنها- أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمى افتلتت نفسها ولم توصى وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم».

وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عباس -رضى الله عنهما- أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمى توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: نعم. قال: فإنى أشهدك أن حائطى المخراف صدقة عنها.

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة -رضى الله عنه- «أن رجلاً قال للنبى ﷺ: إن أبى مات وترك مالاً، ولم يوص فهل يكفى عنه أن أتصدق عنه؟ قال: نعم».

وفى السنن ومسند أحمد عن سعد بن عبادة أنه قال: «يا رسول الله إن أم سعد ماتت فأى الصدقة أفضل؟ قال: الماء».

فحفر بئرًا وقال: هذه لأم سعد.

وعن عبد الله بن عمرو أن العاص بن وائل نذر فى الجاهلية أن ينحر مائة بدنة، وأن هشام بن العاص نحر خمسًا وخمسين، وأن عمرًا سأل النبى ﷺ عن ذلك فقال: «أما أبوك فلو أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك» - رواه الإمام أحمد.

وصول ثواب الصيام

قال العلامة ابن القيم رحمة الله عليه:

وأما الدليل على وصول ثواب الصوم إلى الميت فما روى فى الصحيحين عن عائشة -رضى الله عنها- أن رسول ﷺ قال: «من مات وعليه صيام: صام عنه وليه».

وفى الصحيحين أيضًا عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله: أمى ماتت وعليها صوم شهر.. أفأقضيه عنها؟ قال: نعم.. فدين الله أحق أن يقضى».

وفى رواية: «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله: إن أمى ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: أفرأيت لو كان على أمك دين فقبضته: أكان يؤدى ذلك عنها. قالت: نعم، قال فصومى عن أمك».

وهذا اللفظ للبخارى وحده تعليقًا.

وعن بريدة -رضى الله عنه- قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت: إنى تصدقت على أمى بجارية، وإنها ماتت فقال: وجب أجرك وردها عليك الميراث فقالت: يا رسول الله إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها؟ قال: صومى عنها قالت: إنها لم تحج قط أفأحج عنها؟ قال: حجى عنها» رواه مسلم.

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- «أن امرأة ركبت البحر فنذرت إن الله نجاها أن تصوم شهرا فنجاها الله، فلم تصم حتى ماتت فجاءت بنتها أو أختها إلى رسول الله ﷺ فأمرها أن تصوم عنها» - رواه أهل السنن والإمام أحمد.

وكذلك روى عنه ﷺ وصول ثواب بدل الصوم وهو الإطعام:

ففى السنن: عن ابن عمر -رضى الله عنهما- قال: قال رسول ﷺ «من مات وعليه صيام شهر فليطعم عنه لكل يوم مسكين» - رواه الترمذى.

قال الترمذى: ولا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، والصحيح عن ابن عمر من قوله موقوفًا.

وفى سنن أبى دواد عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «إذا مرض الرجل فى رمضان ولم يصم أطعم عنه ولم يكن عنه قضاء وإن نذر: قضى عنه وليه».

وصول ثواب الحج

قال العلامة ابن القيم رحمة الله عليه:

وأما وصول ثواب الحج: ففى صحيح البخارى عن ابن عباس -رضى الله عنهما- «أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت: إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟ قال: حجى عنها.

أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله فالله أحق بالقضاء».

وقد تقدم حديث بريدة وفيه: «إن أمى لم تحج قط، أفأحج عنها؟ قال: حجى عنها».

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «إن امرأة سنان بن مسلمة الجهنى سألت رسول الله ﷺ أن أمها ماتت ولم تحج أفيجزئ أن تحج عنها؟ قال: نعم. لو كان على أمها دين فقضته عنها ألم يكن يجزئ عنها» رواه النسائى.

وروى أيضًا عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أن «امرأة سألت النبى ﷺ عن ابنها مات ولم يحج قال: (حجى عن ابنك).

وروى أيضًا عنه قال: «قال رجل يا نبى الله إن أبى مات ولم يحج أفأحج عنه؟ قال: أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيه؟ قال: نعم قال: فدين الله أحق».

وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمته، ولو كان من أجنبى أو من غير تركته.

وقد دل عليه حديث أبى قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت فلما قضاهما قال له النبى ﷺ الآن بردت عليه جلدته».

سؤال القبر

اتفق أهل السنة والجماعة: على أن كل إنسان يسأل بعد موته: قبر أم لم يقبر ..

فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رمادًا ونسف فى الهواء أو غرق فى البحر: ليسئل عن أعماله وجوزى بالخير: خيرًا، وبالشر: شرًا.

وأن النعيم أو العذاب على النفس والبدن معًا .. قال ابن القيم: ذهب سلف الأمة وأئمتها إلى أن الميت إذا مات يكون فى نعيم أو عذاب وإن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا ويحصل له معها النعيم أو العذاب.

ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى: أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين وتعاد الأبدان» متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى وقال المروزى: قال أبو عبد الله - يعنى الإمام أحمد - عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال مضل.

وقال حنبل: قلت لأبى عبد الله: فى عذاب القبر؟

فقال: هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر بها .. كلما جاء عن النبى ﷺ إسناد جيد أقررنا به إذا لم نقر بما جاء به رسول الله ﷺ ودفعناه ورددناه: رددنا على الله أمره .. قال تعالى **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه﴾**[1].

قلت له: وعذاب القبر حق؟ قال: حق ... يعذبون فى القبور.

قال: وسمعت أبا عبدالله يقول: نؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير

(١) سورة الحشر الآية ٧.

وأن العبد يسأل فى قبره . . . قال تعالى: ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة**﴾[1] . . . فى القبر.

وقال أحمد بن القاسم: قلت: يا أبا عبدالله: تقر بمنكر ونكير وما يروى فى عذاب القبر؟ فقال: سبحان الله .. نعم .. نقر بذلك ونقر له.

قلت: هذه اللفظة تقول: منكر ونكير هكذا؟ أو تقول: ملكين؟

قال: منكر ونكير.

قلت يقولون: ليس فى حديث منكر ونكير.

قال: هو هكذا يعنى أنهما منكر ونكير.

ثم يطرح العلامة ابن القيم فى هذه القضية سؤالاً يقول فيه:

هل تعاد الروح إلى الميت فى قبره وقت السؤال أم لا؟

ويجيب قائلا: فقد كفانا رسول الله ﷺ أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس حيث صرح بإعادة الروح إليه: فقد قال البراء بن عازب.

كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا النبى ﷺ فقعد وقعدنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وهو يلحد له فقال: «أعوذ بالله من عذاب القبر ثلاث مرات ثم قال: «إن العبد إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا: نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة: أخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من (فى) السقاء - أى فمه - فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال: فيصعدون بها فلا يمرون بها - يعنى على ملأ من الملائكة - إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان - بأحسن أسمائه التى كانوا

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٧.

يسمونه فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيـا فيستفتحون له فيفتح له فيشـيعه من كل سماء مقـربوها إلى السماء التى تليها حـتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله تعالى فيقـول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيـدوه إلى الأرض فإنى منها خلقـتهم ومنها أعيـدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى.

قال: فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول ربى الله فيقولان له ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله فيقولان له: وما علمك بهذا؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت.

فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وافتحوا له بابًا من الجنة.

قال: فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره.

قال: ويأتيه رجل حـسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فـيقول: أبشر بالذى يسرّك .. هذا يومك الذى كنت توعـد فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجىء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح فيقول: رب أقم الساعـة حتى أرجع إلى أهلى، قـال: وإن العبد الكافـر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقـبال من الآخرة: نزل إليـه من السماء مـلائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة: اخرجى إلى سخط من الله وغضب..

قال: فيـتفرق فى جـسده فينتزعـها كما ينتـزع السنود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخـذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جـيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الريح الخبيث؟ فيـقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه الـتى كان يسمى بها فى

الدنيا حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح ثم قرأ رسول الله ﷺ: **﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط﴾**[1].

فيقول الله عز وجل «اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى» فتطرح روحه طرحًا ثم قرأ **﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق﴾**[2].

فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيقولان له: من ربك؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له بابًا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذى يسؤك هذا يومك الذى كنت توعد.

فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر فيقول: أنا عملك الخبيث فيقول: رب لا تقم الساعة»

رواه الإمام أحمد وأبو داود.

اللهم أجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة.

نصوص نبوية صحيحة

وهذه مجموعة من الأحاديث النبوية الصحيحة نستشهد بها على صحة ما ذكرناه:

روى مسلم عن زيد بن ثابت قال: بينا رسول الله ﷺ فى حائط (الحائط هو البستان) لبنى النجار على بغلته ونحن معه إذ جادت به فكادت تلقيه، فإذا قبر ستة أو خمسة أو أربعة . . فقال: من يعرف أصحاب هذه القبور؟ فقال رجل : أنا. قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال:

(١) سورة الأعراف الآية ٤٠.   (٢) سورة الحج الآية ٣١.

مات فى الأشراط. فقال: إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها. . . فلولا أن لا تدافنوا: لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر: الذى أسمع منه.

ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار. قالوا نعوذ بالله من عذاب النار. قال: تعوذوا بالله من عذاب القبر. قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر. قال: تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قال: تعوذوا بالله من فتنة الدجال قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال».

وروى البخارى ومسلم عن قتادة عن أنس أن النبى ﷺ قال: إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم: أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ.

فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله.

قال: فيقولان: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة. . فيراهما جميعًا.

وأما الكافر والمنافق فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس فيقولان: لا دريت ولاتليت. . ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة فيسمعها من يليه غير الثقلين. (ومعنى لا دريت . . ولا تليت): أى لا كنت داريًا ولا تاليًا. . والمقصود بها الدعاء عليه).

وروى البخارى ومسلم وأصحاب السنن عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل فى قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله: فذلك قول الله ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة**﴾[1].

وفى لفظ: نزلت فى عذاب القبر: يقال له من ربك؟ فيقول: الله ربى ومحمد نبى فذلك قول الله ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة**﴾[1].

---

(١) سورة إبراهم الآية ٢٧.

وفى مسند الإمام أحمد وصحيح أبى حاتم أن النبى ﷺ قال:

«إن الميت إذا وضع فى قبره: إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن شماله وكان فعل الخيرات «من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان» عند رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلى مدخل ثم يؤتى من يمينه فيقول الصيام: ما قبلى مدخل. ثم يؤتى من يساره فتقول الزكاة: ما قبلى مدخل. ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان: ما قبلى مدخل. فيقال: له اجلس. فيجلس وقد مثلت له الشمس وقد أخذت للغروب فيقال له: هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟ فيقول؟ دعونى حتى أصلى فيقولان: إنك ستصلى أخبرنا عما نسألك عنه؟ أرأيتك هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه؟ وما تشهد عليه؟ فيقول: محمد أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله فيقولان له: على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسرورا ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعًا وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدئ منه وتجعل نسمته فى النسيم الطيب وهى طير معلق فى شجر الجنة.. قال: فذلك قول الله تعالى **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾**[1].. وذكر فى الكافر ضد ذلك إلى أن قال:

«ثم يضيق عليه فى قبره إلى أن تختلف أضلاعه فتلك المعيشة الضنك التى قال الله تعالى: **﴿فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾**[2].

وفى صحيح البخارى عن سمرة بن جندب قال: «كان النبى ﷺ

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٧. (٢) سورة طه الآية ١٢٤.

إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: من رأى منكم الليلة رؤيا؟ قال: فإن رأى أحد رؤيا قصـها فيقول: ما شاء الله.. فسـألنا يومًا فقال: هل رأى أحـد منكم رؤيا؟ قلنا: لا. قـال: لكنى رأيت الليلة رجلين أتيـانى فأخذا بيدى وأخرجانى إلى الأرض المقدسة فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حـديد يدخله فى شدقه حـتى يبلغ قفاه ثم يفعل بشـدقه الآخر مثل ذلك ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله قلت ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بصخرة أو فـهر فيشدخ بها رأسه فإذا ضـربه تدهده الحجر فانطلق إليه ليأخذ فـلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كـما هو فعاد إليه فـضربه قلـت: ما هذا؟ قالا: انطـلق فانطلقنا إلى نقب مـثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار فإذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم اللهب من تحتهم فإذا اقترب: ارتفعوا حتى كادوا يخرجون فإذا خمدت: رجعوا فقلت: ما هذا؟ قـالا: انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة فأقبل الرجل الذى فى النهر فـإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجـر فى فيه (أى فمـه) فرده حيث كان فجعل كلما جاء ليخـرج: رمى فى فيه بحجر فرجع كما كان فقلت ما هذا ؟ قـالا: انطلق فانطلقنا حتى أتينا إلى روضة خضـراء فيها شجرة عظيمة وفى أصلها شيخ وصبيان وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقـدها فصـعدا إلى الشـجرة وأدخلانى دارًا لـم أر قـط أحسن منها.. فيها شيوخ وشبان ثم صعدا بى فأدخلانى دارا هى أحسن وأفضل قلت: طوفتمانى الليلة فأخبرانى عما رأيت؟ قالا: نعم: الذى رأيته يشق شدقه: كذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به إلى يوم القيـامة. والذى رأيته يشـدخ رأسه فرجل علمـه الله القرآن فنام عنه بالليل ولـم يعمل به بالنهار يفعل به إلى يوم القيامة. وأما الذى رأيته فى النقب: فهم الزناة. والذى رأيته فى النهر: فآكل الربا.

فأمـا الشيخ الذي فى أصل الشـجرة: فإبراهيم والـصبيـان حوله: فأولاد الناس.

والذى يوقد النار: فمالك خازن النار.

والدار الأولى: دار عامة المؤمنين . وأما هذه الدار فدار الشهداء.. وأنا جبريل وهذا ميكائيل فارفع رأسك.. فرفعت رأسى فإذا قصر مثل السحابة قالا: ذلك منزلك قلت: دعانى أدخل منزلى. قالا: إنه بقى لك عمر لم تستكمله فلو استكملته: أتيت منزلك»

قال ابن القيم: وهذا نص فى عذاب البرزخ فإن رؤيا الأنبياء وحى ومطابق لما فى نفس الأمر.

وروى الطحاوى عن ابن مسعود أن النبى ﷺ قال: «أمر بعبد من عباد الله أن يضرب فى قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى صارت واحدة فامتلأ قبره عليه نارًا فلما ارتفع عنه أفاق. قال: علام جلدتمونى؟ قالوا: إنك صليت بغير طهور، ومررت على مظلوم فلم تنصره» وعن أنس أن النبى ﷺ سمع صوتًا من قبر فقال:

متى مات هذا؟ فقالوا: مات فى الجاهلية فسر بذلك وقال: «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر» رواه النسائى ومسلم.

وعن ابن عمر -رضى الله عنهما- عن النبى ﷺ قال: «هذا الذى تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة... لقد ضم ضمة ثم فرج عنه» - رواه البخارى ومسلم والنسائى.

﴿تعليق﴾

إذا سأل سائل ما الحكمة فى كون عذاب القبر لم يذكر فى القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى؟

أجاب على ذلك العلامة ابن القيم فقال: الجواب من وجهين: مجمل ومفصل.

أما المجمل: فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما، وهما: الكتاب والحكمة..

قال تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم﴾[1]

قال تعالى: ﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتابه والحكمة﴾[2]. وقال تعالى: ﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾[3].

والكتاب: هو القرآن.

والحكمة: هى السنة باتفاق السلف.

وما أخبر به الرسول عن الله: فهو فى وجوب تصديقه والإيمان به.. كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله..

هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلا من ليس منهم. وقد قال النبى ﷺ «إنى أوتيت الكتاب ومثله معه».

وأما الجواب المفصل: فهو أن نعيم البرزخ وعذابه مذكوران فى القرآن فى غير موضع .. فمنها قوله تعالى ﴿ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم.. اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾[4].

وهذا خطاب لهم عند الموت.

وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم: اليوم تجزون ومنها قوله تعالى: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدواً وعشيًا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾[5].

---

(١) سورة النساء الآية ١١٣. (٢) سورة الجمعة الآية ٢.

(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٤. (٤) سورة الأنعام الآية ٢.

(٥) سورة غافر الآيات [٤٥ ، ٤٦].

فذكر عذاب الدارين ذكرًا صريحًا . . لا يحتمل الشك. ومنها قوله تعالى: ﴿**فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون. يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئًا ولا هم ينصرون وإن للذين ظلموا عذابًا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾[1].

وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره فى الدنيا وأن يراد به عذابهم فى البرزخ وهو أظهر، لأن كثيرًا منهم مات ولم يعذب فى الدنيا.

وقد يقال وهو أظهر أن من مات منهم . . عذب فى البرزخ ومن بقى منهم . . عذب فى الدنيا بالقتل وغيره فهو وعيد بعذابهم فى الدنيا وفى البرزخ. ومنها قوله تعالى: ﴿**ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون**﴾[2].

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم عبدالله بن عباس على عذاب القبر. وفى الاحتجاج بها شىء؛ لأن هذا عذاب الدنيا يستدعى به رجوعهم عن الكفر ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن.

لكن من فقهه فى القرآن ودقة فهمه فيه: فهم منها عذاب القبر . . فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين: أدنى وأكبر. فأخبر أن يذيقهم بعض «**الأدنى**» ليرجعوا . . فدلّ على أنه بقى لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا ولهذا قال: «**من العذاب الأدنى**» ولم يقل «**ولنذيقنهم من العذاب الأدنى**».

فلنتأمل ذلك جيدًا . . ونظيره قول النبى ﷺ: «فيفتح له طاقة إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها» ولم يقل: فيأتيه حرها وسمومها فإن الذى وصل إليه: بعض ذلك وبقى له أكثره . . والذى ذاقه أعداء الله فى

---

(١) سورة الطور الآيات [٤٥ : ٤٧]   (٢) سورة السجدة الآية ٢١.

الدنيا بعض العذاب وبقى لهم: ما هو أعظم.

ومنها قوله تعالى: **﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون، فلولا إن كنتم غير مدينين، ترجعونها إن كنتم صادقين، فأما إن كان من المقربين، فروح وريحان وجنة نعيم، وأما إن من كان أصحاب اليمين، فسلام لك من أصحاب اليمين، وأما ان كان من المكذبين الضالين، فنزل من حميم، وتصلية جحيم، إن هذا لهو حق اليقين، فسبح باسم ربك العظيم﴾**(١)

فذكر ههنا: أحكام الأرواح عن الموت وذكر فى أول السورة: أحكامها يوم المعاد الأكبر. وتقديم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية.. إذ هى أهم وأولى بالذكر وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام كما جعلهم فى الآخرة ثلاثة أقسام. ومنها قوله تعالى: **﴿يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعى إلى ربك راضية مرضية، فادخلى فى عبادى، وادخلى جنتى﴾**(٢)..

وقد اختلف السلف: متى يقال لها ذلك؟

فقالت طائفة: يقال لها عند الموت، وظاهر اللفظ: مع هؤلاء فإنه خطاب للنفس التى قد تجردت عن البدن وخرجت منه.

وقد فسر ذلك النبى ﷺ بقوله فى حديث البراء وغيره فيقال لها: (اخرجى راضية مرضيًا عنك) وقوله تعالى: **﴿فادخلى فى عبادى﴾** مطابق لقوله ﷺ «اللهم الرفيق الأعلى». وأنت إذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلاً وتفسيراً لما دل عليه القرآن.

أسباب عذاب القبر

قال العلامة ابن القيم:

ذلك راجع إلى سببين:

مجمل ومفصل:

---

(١) سورة الواقعة الآيات [٨٣ : ٩٦].

(٢) سورة الفجر الآيات [٢٧ : ٣٠].

أمـا المجمل فـإنهم يعـذبون على جهلهـم بالله وإضاعـتهم لأمـره وارتكابهم لمعاصـيه فلا يعـذب الله روحا عرفـته وأحبـته وامتـثلت أمره واجتنبت نهيـه ولا بدنا كانت فيه أبدا فإن عذاب القـبر وعذاب الآخرة: أثر غضب الله وسـخطه على عبـده فمن أغضب الله وأسـخطه فى هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك. كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه: فمستقل ومستكثر ومصدق ومكذب.

وأما المفصل: فقد أخبر النبى ﷺ عن الرجلين اللذين رآهما يعذبان فى قبورهما يمشى أحدهما بالنميمة بين الناس ويترك الآخر الاستبراء من البول.

فهذا ترك الطهارة الواجبة، وذلك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه وإن كان صادقا وفى هذا تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة: بالكذب والزور والبهتان: أعظم عذابًا كما أن فى ترك الاستبراء من البول تنبيـها على أن من ترك الصلاة التى الاستـبراء من البول بعض واجبـاتها وشروطها فهـو أشد عذابًا وفى حديث شعبة (أمـا أحدهما: فكان يأكل لحوم الناس فهذا مغتاب وذلك نمام).

وقد تقـدم حديث ابن مـسعود -رضى الله عنـه- فى الذى ضرب سوطًا امتلأ القـبر عليه به نارًا لكونه صلى صلاة واحدة بغـير طهور ومر على مظلوم فلم ينصـره، وقد جاء فى صحـيح البخارى عن سـمرة بن جندب قال: (كان النبى ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: من رأى منكم الليلة رؤيا . . .؟ والحديث: مذكور بطوله فيما مضى فليرجع إليه من شـاء ومما سبق يتبين أن عـذاب القبر يكون عن مـعاصى القلب والعين والأذن والفم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل والبدن كله:

فالنمـام والكذاب والمغتاب وشاهد الزور وقـاذف المحصن والموضع فى الفتنة والداعى إلى البدعة والـقائل على الله ورسوله ما لا علم له به والمجازف فى كـلامه وآكل الربا وآخـذه ومعطيـه وكاتبـه وشاهده وآكل أموال اليتامى وآكل السحت من الرشوة والبرطيل (الرشوة) ونحوهما وآكل

مال أخيه المسلم بغير حق أو مال المعاهد وشارب المسكر وآكل لقمة الشجرة الملعونة والزانى واللوطى والسارق والخائن والغادر والمخادع والماكر والمحلل والمحلل له والمحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه ومؤذى المسلمين ومتتبع عوراتهم والحاكم بغير ما أنزل الله والمفتى بغير ما شرعه الله والمعين على الإثم والعدوان وقاتل النفس التى حرم الله والملحد فى حرم الله والمعطل لحقائق أسماء الله وصفاته الملحد فيها والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول الله ﷺ والنائحة والمستمع إليها ونواحو جهنم وهم المغنون الغناء الذى حرمه الله ورسوله والمستمع إليهم والذين يبنون المساجد على القبور ويوقدون عليها القناديل والسرج والمطففون فى استيفاء مالهم إذا أخذوه وهضم ما عليهم إذا بذلوه والجبارون والمتكبرون والمراؤون والهمازون واللمازون والطاعنون على السلف والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين فيسألونهم ويصدقونهم وأعوان الظلمة الذين قد باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم والذى إذا خوفته بالله وذكرته به لم يرعو ولم ينزجر فإذا خوفته بمخلوق مثله: خاف وارعوى وكف عما هو فيه والذى يهدى بكلام الله ورسوله فلا يهتدى ولا يرفع به رأسًا فإذا بلغه عمن يحسن به الظن ممن يصيب ويخطئ: عض عليه بالنواجذ ولم يخالفه والذى يقرأ عليه القرآن فلا يؤثر فيه وربما استثقل به فإذا سمع قرآن الشيطان ورقية الزنا ومادة النفاق: طاب سره وتواجد وهاج من قلبه دواعي الطرب وود أن المغنى لا يسكت والذى يحلف بالله ويكذب فإذا حلف بالبندق أو برئ من شيخه أو قريبه أو سراويل الفتوة أو حياة من يحبه ويعظمه من المخلوقين: لم يكذب ولو هدد وعوقب والذى يفتخر بالمعصية ويتكثر بها بين إخوانه وإضرابه - وهو المجاهر والذى لا تأمنه على مالك وحرمتك - والفاحش اللسان البذىء الذى تركه الخلق تقاء شره وفحشه والذى يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها وينقرها نقرًا ولا يذكر الله فيها إلا قليلاً ولا يؤدى زكاة ماله طيبة بها نفسه ولا يحج مع قدرته على الحج ولا يؤدى ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها

ولايتورع من لحظة ولا لفظة ولا أكلة ولا خطوة ولا يبالى بما حصل من المال من حلال أو حـرام ولا يصل رحمـه ولا يرحم المسكين ولا الأرملة ولا اليتيم ولا الحيوان البهيم بل يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ويرائى العالمين ويمنع الماعـون ويتشغل بعـيوب الناس عن عيـبه وبذنوبهم عن ذنبه.

كل هؤلاء وأمـثالهم: يعـذبون فى قبورهـم بهذه الجرائم بـحسب كثرتها وقلتها وصغيرها وكبيرها.

ولما كان أكـثر الناس كـذلك: كان أكثـر أصحاب القـبور مـعذبين والفائز منهم قليل.

فظواهر القبور: تراب وبواطنها حـسرات وعذاب ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبينات وفى باطنها الدواهى والبليات.

تغلى بالحسرات كما تغلى القدور بما فيها ويحق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيها. تالله لقد وعظت فما تركت لواعظ مقالا ونادت:
يا عمار الدنيا: لقد عمرتم دارًا موشكة بكم زوالاً.

وخربتم دارًا أنتم مسرعون إليها انتقالاً.

عمرتم بيوتًا لغيركم : منافعها وسكناها.

وخربتم بيوتًا ليس لكم مساكن سواها.

هذه دار الاستباق ومستودع الأعمال وبذر الزرع وهذه محل للعبر: رياض من رياض الجنة أوحفر من حفر النار!

فضل القرآن ومدارسته

اعلم - وفقنى الله وإياك - أن حـرص العبد فى الدنيـا على قراءة القرآن ومدارسته وحفظه وتلاوته: خيرما ينور له قبره ويفسح له فيه.

يقول الإمام الشاطبى رحمه الله فى هذا المعنى:

وخيـر جليـس لا يمل حديثه
ترداده يزداد فيه تجـمـلا

وحيث الفتى يرتاع فى ظلمـــاته
من القبر يلقاه ســـنا متهـــللا
هنالك يهنيه مقبلا وروضـــة
ومن أجله فى ذروة العـــز يجتلى
يناشـــد فى إرضـــائه لحبيبه
وأجدر به سؤلا إليه موصـــلا
فيا أيها القـــارى به متمســكا
مجلا له فى كل حال مبجـــلا
هنيئا مريئا والداك عليهمـــا
ملابس أنوار من التاج والحلى!

يرحم الشاطبى وجزاه الله عن القرآن خيراً.

فضل القـــرآن وحافـــظ القـــرآن

وها نحن أولاً: نذكر نصوصًا تبين لنا فضل القرآن على أصحابه العاملين به المستمسكين بهديه السالكين على منهجه السائرين على دربه.

قال الله تبارك وتعالى: **﴿ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم﴾**[1].

وقال جل شأنه: **﴿بل هو قرآن مجيد﴾**[2].

وقال سبحانه وتعالى: **﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾**[3].

وصح عن النبى ﷺ أنه حدث عن جبريل عليه السلام عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (من شغله قراءة كتابى عن مسألتى: أعطيته أفضل

(١) سورة الحجر الآية ٨٧. (٢) سورة البروج الآية ٢١.
(٣) سورة فصلت الآيتان [٤١ ، ٤٢].

ما أعطى الشاكرين) وفى رواية أخرى (السائلين).

وعن أنس عن النبى ﷺ أنه قال: «إن لله أهلين من النـاس فقيل: من هم يا رسول الله؟

قال: أهل القرآن. هم أهل الله وخاصته»

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- يرفـعه: (أشراف أمتى: حملة القرآن وأصحاب الليل).

وعنه أيضًا يرفعه:

(من أعطى القرآن فظن أن أحدًا أعطى أفضل مما أعطى: فقد عظم ما حقر الله وحقـر ما عظم الله) وقال: (من أوتى القرآن: فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لم يوح إليه).

وسئل الـنبى ﷺ: من أفضل الناس؟ فـقال: «الحال المرتحـل قيل: ومن الحال المرتحل؟ قـال: صاحب القرآن.. كلمـا حل ارتحل: أى كلما أتم ختمة: استأنف ختمة أخرى».

وعن على -رضى الله عنه- قال: (ذكـر لرسول الله ﷺ الفتنة .. قلنا يا رسول الله: وما المخـرج منها؟ قال: كتاب الله: فيه نبـأ ما قبلكم وفصل ما بينكم وخبر مـا بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قـصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غـيره أضله الله، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصـراط المستقـيم، وهو الذى لا تلتبس له الألسن ولا يزيغ به الأهواء، ولا يخـلق عن كثـرة الرد، ولا يشـبع منه العلماء، ولا تـنقضى عجـائبه، هو الذى لم يلبث الجن إذ سـمعـته أن قالوا: ﴿**إنا سمعنا قـرآنا عجبًا**﴾[1]. من قـال به: صـدق ومن حكم به عدل ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم.

وعن ابن مسعود -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله فى أرضه فتعلموا مـأدبته ما استطعتم وإن هذا القرآن هو

---

(١) سورة الجن الآية ١.

حبل الله فهو نوره المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد فاقرءوه فإن الله يأجركم بكل حـرف عشر حسنات أما إنى لا أقول: آلم عشر ولكن ألف ولام وميم ثلاثون حسنة) .

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

وعن أبى الدرداء -رضى الله عنه- يرفـعه إلى النبي ﷺ أنـه قال: «القرآن أفضل من كل شىء دون الله فمن وقر القرآن: فقد وقر الله ومن لم يوقر القرآن، فقد استخف بحـرمة الله، حرمة القرآن على الله كحرمة الوالد على ولده».

وعن أبى أمامـة أن النبى ﷺ قال: «من قرأ ثلث القرآن فـقد أوتى ثلث النبـوة، ومن قرأ نصف القـرآن أوتى نصف النبوة، ومن قـرأ ثلثى القرآن أوتى ثلثى النبوة ومن قرأ القرآن كله أوتى النبوة كلها، ثم يقال له يوم القيامة: اقـرأ وارق بكل آية درجة حتى يتبخر مـا معه من القرآن ثم يقال له: اقبض فيقبض فـيقال: هل تدرى ما فى يديك؟ فإذا فى اليمنى الخلد وفى الأخرى النعيم».

وعن عـائشة -رضى الله عـنها- عن النبـى ﷺ أنه قال: «حـملة القرآن محفوفون برحمة الله الملبسون نور الله المعلمون كلام الله فمن عاداهم فقد عادى الله ومن والاهم فقد والى الله».

يقول الله عز وجل: ﴿يا حملة كتاب الله تحببوا إلى الله بتوقير كتابه يزدكم حبًا ويحببكم إلى خلقه يدفع عن مستمع القرآن شر الدنيا ويدفع عن تالى القرآن بلوى الآخرة.

ولمستمع آية من كـتاب الله خير من ثبير ذهبًا ولتـالى آية من كتاب الله خير مما تحت العرش إلى تخوم الأرض السفلى.

وعن أبى بـريدة -رضى الله عنه- قـــال: «كنت عند الـنبى ﷺ فسمعته يقول: إن القرآن يلقى صـاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره: كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفنى؟ فـيقول. ما أعرفك فيقول: أنا صاحبك . . القرآن الذى أظمأتك فـى الهواجر، وأسهرت ليلك وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة.

قال: فيـعطى الملك بيمينه، والخلد بشمـاله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حلتين لا يقـوم لهما أهل الدنيا فيقـولان: بم كسينا هذا؟ فيقال لهما: بأخذ ولدكما القرآن ثم يقال له: اقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها فهو فى صعود ما دام يقرأ: هذًا كان أو ترتيلاً».

وعن معـاذ -رضى الله عنه- قال: «كـنت فى سفـر مع رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله حدثنا بحديث فـقال: إن أردتم عيش السعداء أو مـوت الشهـداء والنجاة يوم الحـشـر والظل يوم الحرور والهـدى يوم الضـلالة: فـادرسوا القـرآن فـإنه كلام الـرحمن وحـرس من الشـيطان ورجحان فى الميزان».

وعن عـقبة بن عـامر قـال: «خرج علينا رسـول الله ﷺ ذات يوم ونحن فى الصفـة فقال: أيكم يحب أن يغـدو كل يوم إلى بطحان - أو العقـيق فيأتى بناقـتين كومادين زهـراوين فى غير إثم ولا قطيـعة رحم؟ قلنا: كلنا يا رسول الله يحب ذلك . . قـال: لأن يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد فيـتعلم آيتين من كتاب الله خير له من نـاقتين وثلاث خير له من ثلاث من أعدادهن من الإبل».

وعن عائشـة -رضى الله عنها- قالت: قـال رسول الله ﷺ «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذى يتتعتع فيه له أجران».

وروى عن أبى ذر أنه جـاء إلى النبى ﷺ فقـال: يا رسول الله إنى أخاف أن أتعلم القرآن ولا أعمل به فقال ﷺ: «لا يعذب الله قلبًا أسكنه القرآن».

وعن أنس عن النبى ﷺ أنه قال: «من علم آية من كـتاب الله كان

له أجرها ما تليت» .

وعن ابن مسعود -رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن مؤثرا فإن فيه علم الأولين والآخرين ألم تسمعوا قوله: ﴿ما فرطنا فى الكتاب من شىء﴾» .

وعن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «أعطيت السبع الطوال مكان التوراة وأعطيت المائدة مكان الإنجيل وأعطيت المثانى مكان الزبور، وفضلت بالمفصل» .

وعن عثمان بن عفان -رضى الله عنه- أنه قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» .

قال ابن عباس -رضى الله عنهما-: افتخرت السماء على الأرض فقالت: أنا أفضل: فىّ العرش والكرسى واللوح والمقام وفىّ جنة المأوى وجنة عدن وفىّ الشمس والقمر والنجوم ومنى ينزل أرزاق الخلق وفىّ الرحمة فقالت الأرض: وتركت أن تقول: فىّ الأنبياء والأولياء وفىّ بيت الله بل قالت: أليس تنقلب أضلاع حملة القرآن فى بطنى فقال الله: صدقت يا أرض وكان افتخارها على السماء أن قال الله لها: صدقت! .

وعن أبى موسى الأشعرى -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ «مثل الذى يقرأ القرآن ويعمل به مثل الأترجة: طعمها طيب وريحها طيب، ومثل الذى لا يقرأ القرآن ويعمل به مثل التمرة: طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الذى يقرأ القرآن ولا يعمل به: كمثل الريحانة لها رائحة وطعمها مر، ومثل الذى لا يقرأ القرآن ولا يعمل به مثل الحنظلة: لا طعم لها ولا رائحة» .

وسئل النبى ﷺ: «من أحسن الناس صوتًا؟ قال: من إذا سمعته يقرأ خشية: تخشى الله وكان ﷺ يقول لأصحابه: اقرأوا القرآن بحزن فإنه نزل بحزن» .

وقال ﷺ: «إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل: فما جلاؤها يا رسول الله قال: ذكر الموت وتلاوة القرآن. ألم تسمعوا قوله تعالى: ﴿وشفاء لما فى الصدور﴾[1].

وقال عليه السلام: القرآن هو الدواء.

وقال: «لا فاقة بعد القرآن ولا غنى دونه» وقال: «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه» وقال: «القرآن شافع مشفع أو ماحل مصدق».

وقال: «من قرأ القرآن وعمل بما فيه: لم يردّ إلى أرذل العمر».

وقال فى قوله: ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ قال: يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه.

النجاة من عذاب القبر

إذا سألنا وقلنا: ما هى أسباب المنجيات من عذاب القبر حتى نأخذ فى تحصيلها؟

فإن الجواب على ذلك يكون من وجهين: أحدهما مجمل والآخر مفصل.

أما المجمل: فهو تجنب تلك الأسباب التى تقتضى عذاب القبر ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه فى يومه، ثم يجدد له توبة نصوحًا بينه وبين الله فينام على تلك التوبة، ويعزم على أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ ويفعل هذا كل ليلة فإن مات من ليلته مات على توبة وإن استيقظ استيقظ مستقبلاً للعمل مسرورًا بتأخير أجله حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فاته وليس للعبد أنفع من هذه النومة، ولا سيما إذا عقب ذلك بذكر الله واستعمال السنن التى وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم حتى يغلبه النوم، فمن أراد الله به خيرًا وفقه لذلك ولا قوة إلا بالله

---

(١) سورة يونس الآية ٥٧.

أما الجواب المفصل فذكر أحاديث عن رسول الله ﷺ فيما ينجى من عذاب القبر: فمنها: ما رواه مسلم فى صحيحه عن سلمان -رضى الله عنه- قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول : رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات أجرى عليه عمله الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان»

وفى جامع الترمذى من حديث فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال: «كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطًا فى سبيل الله فإنه ينمّى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر» قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

وفى سنن النسائى عن رشدى بن سعد عن رجل من أصحاب النبى ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ قال: كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة.

وعن المقدام بن معديكرب -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له فى أول دفعة من دمه ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع فى سبعين من أقاربه) رواه ابن ماجه والترمذى وهذا لفظه وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «ضرب رجل من أصحاب رسل الله ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة (الملك) حتى ختمها فأتى النبى ﷺ فقال يا رسول الله: ضربت خبائى على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة (الملك) حتى ختمها فقال النبى ﷺ: «هى المانعة، هى المنجية: تنجيه من عذاب القبر» قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب.

وفى سند عبد بن حميد عن إبراهيم بن الحكم عن أبيه عكرمة عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أنه قال لرجل: الا أتحفك بحديث تفرح

(١) سورة الملك الآية ١.

به؟ قال الرجل: بلى؟ قال: اقرأ: **﴿تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير﴾**[1] . احفظها وعلمها أهلك وولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطلب له إلى ربها أن ينجيه من عذاب النار إذا كانت فى جوفه وينجى الله بها صاحبها من عذاب القبر، قال رسول الله ﷺ: «لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى».

قال أبو عمر بن عبد البر: وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن سورة ثلاثين آية شفعت فى صاحبها حتى غفر له»: **﴿تبارك الذى بيده الملك﴾**.

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- يرفعه: «من مات مبطونًا: مات شهيدًا ووقى فتنة القبر وغدى وريح عليه برزق من الجنة».

وفى سنن النسائى عن جامع بن شداد قال: سمعت عبدالله بن يشكر يقول: «كنت جالسًا مع سليمان بن صرة وخالد بن عرفطة فذكروا أن رجلاً مات ببطنه فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهدا جنازته فقال أحدهما للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: من قتله بطنه لم يعذب فى قبره».

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده حدثنا شعبة حدثنى أحمد بن جامع بن شداد قال أبى فذكره وزاد: فقال الآخر: بلى.

وفى الترمذى من حديث ربيعة بن سيف عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر».

قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب وليس إسناده بمتصل.

---

(١) سورة الملك الآية ١.

وقد جـاء فيـما ينجى من عـذاب القبـر حديث فـيه الشـفاء رواه أبوموسى المدينى وبين علّته فى كـتابه (الترغيب والترهيب وجـعله شرحًا له) رواه من حديث الفرج بن نضالة حدثـنا هلال أبو جبلة عن سعيد بن المسيب عـن عبد الرحـمن بن سمـرة قال: «خرج علـينا رسول الله ﷺ ونحن فى صفة بالمدينة فـقام علينا فقال: إنى رأيت البارحـة عجبًا رأيت رجلاً من أمتى أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالدين فرد ملك الموت عنه. ورأيت رجلاً من أمتى قـد احتوشته الشيـاطين فجاء ذكر الله فطير الشـياطين عنه. ورأيت رجـلاً من أمتى احتـوشته مـلائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم. ورأيت رجلاً من أمتى يلهث عطشًا كلما دنا من حوض منع وطرد فجاءه صيام شـهر رمضان فأسقاه ورواه. ورأيت رجلاً من أمـتى ورأيت النبيين جلوسًـا حلقًا حلقًـا كلما دنا إلى حلقة طرد ومنع فـجاءه غسله من الجنابة فـأخذ بيده فأقـعده إلى جنبى. ورأيت رجلاً مـن أمتى من بين يديه ظلمـة ومن خلفه ظلمـة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمـة ومن فوقه ظلمة وهو متحـير فيها فجـاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه فى النور. ورأيت رجلاً من أمتى يتقى وهج النار وشررها فجاءته صدقته فصارت سترًا بينه وبين النار وظلاً على رأسه. ورأيـت رجلاً من أمتى يكلم المـؤمنين ولا يكلمونه فـجاءته صلته لرحمـه فقالت: يا معـشر المؤمنين إنه كان وصولاً لرحـمه فكلموه فكلمـه المؤمنون وصـافحـوه وصافـحهـم. ورأيت رجلاً من أمـتى قـد احتـوشته الزبانيـة فجاءه أمـره بالمعروف ونهيـه عن المنكر فاسـتنقذه من أيديهم وأدخله فى مـلائكة الرحمة. ورأيت رجـلاً من أمتى جـاثيًا على ركبتين وبينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذه بيده فأدخله على الله عز وجل. ورأيت رجلاً من أمتى قد ذهبت صحـيفته من قبل شماله فجـاءه خوفه من الله -عـز وجل- فأخذ صحـيفتـه فوضعـها فى يمينه. ورأيت رجلاً من أمتى خف مـيزانه فجاءه إفراطه فثـقلوا ميزانه. ورأيت رجلاً من أمتـى قائمًا على شفـير جهنم فجاءه رجـاؤه من الله عز وجل

فاستنقذه من ذلك ومعنى ورأيت رجلاً من أمتى قد هوى فى النار فجاءته دمعته التى بكى من خشية الله -عز وجل- فاستنقذته من ذلك. ورأيت رجلاً من أمتى قائما على الصراط يرعد كما ترعد السعفة فى ريح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكن روعه ومضى. ورأيت رجلاً من أمتى يزحف على الصراط يحبو أحيانًا ويتعلق أحيانًا فجاءته صلاته فأقامته على قدميه وأنقذته. ورأيت رجلاً من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة.

قال الحافظ أبو موسى: هذا حديث حسن جدًا فبادر يا أخى بالأعمال الصالحة كما أمرك بذلك مولانا سبحانه وتعالى فى قوله: **﴿فاستبقوا الخيرات﴾**[1] وفى قوله عز وجل **﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾**[2].

وفى قوله جل شأنه **﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾**[3].

وفى قوله تبارك وتعالى **﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾**[4].

قال ﷺ: «بادروا بالأعمال الصالحة سبعًا هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غنى مطغيًا، أو هرمًا مفندًا، أو مرضًا مفسدًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر».

فكن لله ذاكرًا وإياك ونسيان الموت فنسيانه ضلال مبين.

واعلم بأن خير الأعمال: ذكر الله.

(١) سورة البقرة الآية ١٤٨. (٢) سورة آل عمران الآيتان [١٣٣ ، ١٣٤].
(٣) سورة الحديد الآية ٢١. (٤) سورة المطففين الآية ٢٦.

والذكر على سبعة أنحاء:

ذكر العينين: البكاء.

ذكر الأذنين: الإصغاء.

ذكر اللسان: الثناء.

ذكر اليدين: العطاء.

ذكر البدن: الوفاء.

ذكر الروح: الخوف والرجاء.

ذكر القلب: التسليم والرضاء.

فضل ذكر الله

قال صلوات الله وسلامه عليه: «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده».

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قلنا: بلى قال: ذكر الله».

مناجاة

ما والذى أبكى وأضحك والذى
أمات وأحيا والذى أخرج المرعى
لقد خاب من يسعى إلى غير بابه
وضل الذى يومًا إلى غيره يدعى
هو القصد لا شىء سواه فمن سعى
إلى غير ذاك القصد ياخيبة المسعى
هو الماجد البر الرحيم وغيره
من الناس لا يستطيع ضرًا ولا نفعا

يعامل بالغفران والصفح من عصى

ويوصل من يستوجب الهجر والقطعا

فسبحانه لا رب فى الكون غيره

يحب الذى يلقى إلى قوله السمعا

سؤال القبر

اعلم بأن سؤال القبر: يعم المؤمن والكافر والقرآن والسنة يؤيدان ذلك.

﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضلّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾(١).

وقد ثبت فى الصحيح أنها نزلت فى عذاب القبر حين يسأل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ أنه قال: «إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه: إنه ليسمع قرع نعالهم» وذكر الحديث.

زاد البخارى:

وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى كنت أقول كما يقول الناس فيقال: لا دريت ولا تليت. . . ويضرب بمطرقة من حديد يصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين. وقد أخبر الله فى كتابه أنه يسأل الكافر يوم القيامة قال تعالى: **﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾**(٢). وقال تعالى: **﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾**(٣).

وقال تعالى: **﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾**(٤).

---

(١) سورة إبراهم الآية ٢٧.
(٢) سورة القصص الآية ٦٥.
(٣) سورة الحجر الآية ٩٢.
(٤) سورة الأعراف الآية ٦.

فإذا سئلوا يوم القيامة: فكيف لا يسألون فى قبورهم؟

مستقر الأرواح

هناك أسئلة تتعلق بالروح وتجد النفس اشتياقًا ملحًا لمعرفة الإجابة عنها. . .

وأول هذه الأسئلة:

أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة؟

ويتفرع عن هذا السؤال أسئلة تقول:

هل هى فى السماء أم فى الأرض؟ . وهل هى فى الجنة. أم لا؟.

قال العلماء - تعقيبًا على هذه الأسئلة - : هذه مسألة عظيمة تكلم فيها الناس . . ومصدر الإجابة عنها هو السمع: أى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

يرى العلماء أن أرواح المؤمنين عند الله فى الجنة: شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم تحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين، وإن روح الكافر فى النار.

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: **﴿فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنة نعيم﴾**(١).

قال المستدل: وهذا قد ذكره سبحانه وتعالى عقب ذكر خروجها من البدن بالموت فى قوله جل شأنه: **﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم. وأنتم حينئذ تنظرون. ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون. فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين﴾**(٢).

قال سبحانه بعد ذلك: **﴿فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنة نعيم﴾**(٣).

---

(١) سورة الواقعة الآيتان [٨٨ ، ٨٩]. (٢) سورة الواقعة الآيتان [٨٣ : ٨٧].

(٣) سورة الواقعة الآيتان [٨٨ : ٨٩].

فقد قسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام:

(مقربين).. أخبر أنها فى جنة النعيم.

(وأصحاب يمين): حكم لها بالسلام، وهو يتضمن سلامتها من العذاب.

(ومكذبة ضالة): وأخبر أن لها نزلاً من حميم وتصلية جحيم.

قالوا: وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعًا.

وقد ذكر سبحانه حالها يوم القيامة فى أول السورة، فذكر حالها بعد الموت وبعد البعث.

واحتجوا بقوله تعالى: **﴿يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعى إلى ربك راضية مرضية. فادخلى فى عبادى، وادخلى جنتى﴾**[1].

وقد قال غير واحد من الصحابة والتابعين: إن هذا يقال لها عند خروجها من الدنيا أيبشرها الملك بذلك.

ولا ينافى ذلك قول من قال إن هذا يقال لها فى الآخرة، فإنه يقال لها عند الموت وعند البعث، وهذه من البشرى التى قال الله فيها: **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا. تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون﴾**[2].

وهذا التنزل يكون عند الموت، ويكون فى القبر، ويكون عند البعث، وأول بشارة الآخرة عند الموت.

وقد جاء فى حديث رسول الله ﷺ أن الملك يقول لها عند قبضها: أبشرى بروح وريحان. وهذا من ريحان الجنة وروى الإمام مالك فى (الموطأ) عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أنه أخبره أن أباه كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن: طائر تعلق فى شجرة الجنة حتى يرجعه الله إلى حياة يوم يبعثه».

---

(١) سورة الفجر الآيتان [٢٧ : ٣٠]. (٢) سورة فصلت الآية ٣٠.

قال أبو عمرو: المراد بنسمة المؤمن: روحه. وقد شاء فضل الله تعالى أن يخص الشهداء بمنازل كريمة ودرجات رفيعة، جزاء ما بذلوا وقاتلوا وقتلوا.

قال ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له فى أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار: الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنين وسبعين من الحور العين، ويشفع فى سبعين إنسانًا من أقاربه».

فلما كان هذا يختص بالشهيد قال: «إن للشهيد» ولم يقل: «إن للمؤمن». وكذلك قوله فى حديث قيس الجزامى: «يعطى الشهيد ست خصال». وكذلك سائر الأحاديث والنصوص التى علق فيها الجزاء بالشهادة.

وعنه ﷺ أنه قال: «أرواح الشهداء تجول فى أجواف طير خضر تعلق فى ثمر الجنة».

وعن معمر عن قتادة قال: بلغنا أن أرواح الشهداء فى صور بيض تأكل من ثمار الجنة.

وعن أبى عاصم الشبيل عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن عبد الله بن عمرو: «أرواح الشهداء فى طير كالزرازير يتعارفون ويرزقون من ثمرة الجنة».

قال أبو عمر: هذه الآثار كلها تدل على أنهم الشهداء، دون غيرهم. وفى بعضها «فى صور طير». وفى بعضها «فى أجواف طير» وفى بعضها «كطير خضر».

قال: والذى يثبت عندى -والله أعلم- أن يكون القول قول من قال «كطير» أو «صور الطير».

ثم: مازلنا بصدد الحديث عن مستقر الأرواح.

قال أبو عبد الله بن منده: وروى موسى بن عـبيدة عن عبد الله بن يزيد عن أم كـبـشة بنت المعـرور قـالت: «دخل علينا رسـول الله ﷺ، فسألناه عن هذه الأرواح؟ فـوصفها صفة أبكى أهل البـيت. فقال: «إن أرواح المؤمنين فى حـواصل طيـر خـضر، ترعـى فى الجنة، وتأكل من ثمـارها، وتشـرب من مـائها، وتأوى إلى قـناديل من ذهب تحت الدش يقولون: ربنا ألحق بنا إخواننا وآتنا ما وعدتنا».

وإن أرواح الكفار فى حواصل الطيـر سود، تأكل من النار وتشرب من النار، وتأوى إلى حجر فى النار.. يقولون: ربنا لا تلحق بنا إخواننا ولا تؤتنا ما وعدتنا.

وقال الطبرانى: حدثنا أبو زرعة الدمشقى، حدثنا عبدالله بن صالح حدثنى معاوية بن صالح عن صخرة بن حبيب قال: سئل النبى ﷺ عن أرواح المؤمنين، فقال: فى طير خضر، تسرح فى الجنة حيث شاءت قالوا يا رسول الله وأرواح الكفار؟ قال محبوسة فى سجين.

رواه أبو الشيخ عن هشام بن يونس عن عـبدالله بن صالح (ورواه) أبو المغيرة عن أبى بكر بن أبى مريم عن صخرة بن حبيب.

وعن تميم الرازى عن النبى ﷺ أنه قال: إذا عرج ملك الموت بروح المؤمن إلى السماء: استقبله جبرائيل فى سبعين ألفًا من الملائكة كل منهم يأتيه ببشارة من السماء، سوى بشـارة صاحبه فإذا انتهى به إلى العرش: خر سـاجدًا فـيقول الله -عـز وجل- لملك الموت: انطلق بروح عـبدى فضعه فى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب.

رواه بكر بن خنيس عن خدار بن عمرو عن زيد وأبى عبدالله.

كلمة عن الروح

اعلم يا أخى - وفـقنى الله وإياك - أن الروح لا يمنعـهـا شىء من الإشراف والاتصال بالقـبـر وفنائه.. وذلك القـدر من الإشراف كـاف لعرض مقـعده عليه... فإن للروح شأنًا آخـر: تكون فى الرفيق الأعلى

فى أعلى عليين ولهـا اتصال بالبدن سلم المسلم عـلى الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام وهى فى الملأ الأعلى.

ومن الخطأ الشنيع أن يعـتقـد بعض الناس أن الروح من جنس مـا يعـهد من الأجـسام التى إذا شـغلت مكانًا لا يمكن أن تكون فى غـيره. وهذا خطأ مـحض... بل الروح تكون فـوق فى أعلى عليين وترد إلى القبر فترد السلام. وتعلم بالمسلم وهى فى مكانها هناك وروح رسول الله ﷺ فى الرفيق الأعلى دائمًا ويردها الله سـبحانه وتعالى إلى القبـر فترد السلام على من سلم عليه وتسمع كلامه.

وقـد رأى رسول الله ﷺ مـوسى قائمًـا يصلى فى قبـر، ورآه فى السماء الخامسة والسادسة والسابعة: فإما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كلمح البـصر، وإمـا أن يكون المتـصل منها بالقـبـر وفنائه بمنزلة شعـاع الشمس وجرمها فى السماء.

وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخـترق السبع الطباق وتسجد لله بين يدى العرش، ثم ترد إلى جسده فى أيسر زمان.

وكـذلك روح الميت: تصعـد بها المـلائكة حتى تجـاوز السمـاوات السبع، وتقف بين يدى الله فتسجد له، ويقضى فيها فضاء، ويريها الملك ما أعد الله لها فى الجنة، ثم تهبط فتشهد غسله وحمله ودفنه.

وقد ذكر أبو عبدالله بن منده من حديث عيسى بن عبدالرحمن:

حدثنا ابن شهاب، حدثنا عامـر بن سعد عن إسماعيل بن طلحـةا ابن عبيد الله عن أبيه قـال: «أردت مالى بالغابة، فأدركنى الليل، فأويت إلى قبر عبدالله بـن عمرو بن حرام، فسمعت قراءة من القـبر ما سمعت أحسن منهـا فجئت إلى رسـول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فـقال: ذلك عبدالله.. ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقـها وسط الجنة، فإذا كان الليل ردت إليـهم أرواحهم فلا يزال كـذلك، حتى إذا طـلع الفجـر: ردت أرواحـهم إلى مكانهم الذى كانت به».

فـفى هذا الحديث: بيـان سرعـة انتقـال أرواحهم من العـرش إلى الثرى، ثم انتقالها من الثرى إلى مكانها.

ولهذا قال مالك وغيره من الأئمة: إن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت وما يراه الناس من أرواح الموتى ومجيئهم إليهم من المكان البعيد: أمر يعلمه عامة الناس . ولا يشكون فيه.

ابن القيم والعلاقة بين الحى والميت

عقد العلامة ابن القيم فصلاً يدور حول سؤال، مفاده: هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم.. أم لا؟ ولما كان هذا السؤال يلقى ظلالاً على نفس السائل: لابد من كشف الغطاء عنها.. فإن الإجابة جاءت موافقة للقاعدة التى قعدناها من قبل، والتى تفيد أن المصدر الحقيقى لما يدور بعد الموت: إنما هو السماع من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

ولذا بدأ «ابن القيم» الإجابة قائلاً:

قال ابن عبدالبر ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يمر على قبر أخيه كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه، إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام.

وفى الصحيحين عنه ﷺ - من وجوه متعددة - «أنه أمر بقتلى بدر فألقوا فى قليب، ثم جاء حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم: يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًا فقال له عمر: يا رسول الله: ما تخاطب من أقوام قد جيفوا... فقال: والذى بعثنى بالحق: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون جوابًا».

وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له، إذا انصرفوا عنه. وقد شرع النبى ﷺ لأمته: إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه، فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل. ولولا ذلك: لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب لمعدوم والجماد.

والسلف الصالح مجمعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحى له، ويستبشر به.

وقال أبو بكر عن عبدالله بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا فى كتاب

«القبور»: باب معرفة الموتى بزيارة الأحياء:
حدثنا محمد بن عون، حدثنا يحيى بن يمان عن عبدالله بن سمعان عن زيد بن أسلم عن عائشة -رضى الله عنها- قالت:
قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده: إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم».
حدثنا محمد بن قدامة الجوهرى، حدثنا معن بن عيسى القزاز، أخبرنا هشام بن سعد، حدثنا زيد بن أسلم عن أبى هريرة -رضى الله تعالى عنه- قال: «إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه: رد عليه السلام وعرفه، وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه: رد عليه السلام».
حدثنا محمد بن الحسين، حدثنى يحيى بن بسطام الأصغر حدثنى مسمع حدثنى رجل من آل عاصم الجحدرى قال: «رأيت عاصمًا الجحدرى فى منامى بعد موته بسنتين فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى، قلت: فأين أنت؟ قال: أنا والله فى روضة من رياض الجنة . . أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبدالله المزنى فنتلقى أخباركم. قال: قلت: أجسادكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات. . بليت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح، قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعم، نعلم بها عشية الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس، قال، قلت: فكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمته».
وحدثنا محمد بن الحسين وحدثنى بكر بن محمد، حدثنا حسن القصاب قال: كنت أغدو مع محمد بن واسع فى كل غداة سبت حتى نأتى المقابر فنقف على القبر فنسلم عليهم وندعو لهم، ثم ننصرف، فقلت ذات يوم: لو صيدت هذا اليوم -يوم الإثنين- قال: بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوم قبلها ويوم بعدها.
حدثنى محمد، حدثنا عبدالعزيز بن أبان، قال: حدثنا سفيان الثورى، قال: «بلغنى عن الضحاك أنه قال: من زار قبرًا يوم السبت قبل طلوع الشمس: علم الميت بزيارته، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمعة»
حدثنى محمد بن الحسين، حدثنى يحيى بن أبى بكير حدثنى

الفضل بن موفق بن خال سفيان بن عيينة قال: «لما مات أبى: جزعت عليه جزعًا شديدًا فكنت آتى قبره فى كل يوم ثم قعدت من ذلك ما شاء الله ثم إنى أتيته يومًا. . . فبينما أنا جالس عند القبر: غلبتنى عيناى، فنمت فرأيت كأن قبر أبى قد انفرج وكأنه قاعد فى قبره متوشحًا أكفانه، عليه سحنة الموتى، قال فكأنى بكيت لما رأيته، قال: يا بنى ما أبطأ بك عنى؟ قلت: وإنك لتعلم بمجيئى؟ قال: ما جئت مرة إلا علمتها، وقد كنت تأتينى فآنس بك وأسر بك ويسر من حولى بدعائك، قال: فكنت آتيه بعد ذلك كثيرًا».

(حدثنى) محمد، حدثنى يحيى بن بسطام حدثنى عثمان بن سودة الطغاوى، قال: وكانت أمه من العابدات وقال:

«لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت: يا ذخرى وذخيرتى ومن عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى لا تخذلنى عند الموت ولا توحشنى فى قبرى، قال: فماتت فكنت آتيها فى كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور فرأيتها ذات يوم فى منامى فقلت لها: يا أماه: كيف أنت؟ قالت: أى بنى: إن الموت لكربة شديدة وإنى بحمد الله لفى برزخ محمود نفترش فيه الإيمان ونتوسد فيه السندس، والإستبرق إلى يوم النشور، فقلت لها: ألك حاجة؟ قالت: نعم قلت: وما هى؟ قالت: لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا فإنى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة، إذا أقبلت من أهلك، يقال لى: هذا ابنك قد أقبل فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات».

حدثنى محمد بن عبدالعزيز بن سليمان، حدثنا بشر بن منصور قال: «لما كان زمن الطاعون فكان رجل يختلف إلى المقابر فيشهد الصلاة على الجنائز، فإذا أمسى: وقف على باب المقابر فقال: آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل حسناتكم. لا يزيد على هذه الكلمات، قال: فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو، قال: فبينا أنا نائم: إذا بخلق كثير قد جاءونى فقلت: ما أنتم وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر، قلت: ما حاجتكم؟ قالوا: إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك. فقلت: وما هى؟ قالوا: الدعوات التى كنت تدعو بها، قال: قلت أعود لذلك، قال: فما تركتها بعد».

حدثنى محمد، حدثنى أحمد بن سهل، حدثنى رشد بن سعد عن رجل عن يزيد بن أبى حبيب أن سليم بن عمير مر على مقبرة وهو حاقن قد غلبه البـول فقال له بعض أصحابه: «لو نزلـت إلى هذه المقابر فبُلت فى بعض حضرها، فـبكى، ثم قال: سبحـان الله !! والله إنى لأستحى من الأموات كما أستحى من الأحياء».

ولولا أن الميت يشعر بذلك: لما استحييت منه.

قال العلامة ابن القـيم: وأبلغ من ذلك: أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه.

قال عـبدالله بن المبارك: حـدثنى ثور بن يزيد عن إبراهيم عن أبى أيوب، قال: «تعرض أعمال الأحيـاء على الموتى فإذا رأوا حسنًا: فرحوا واستبشروا، وإذا رأوا سوءًا: قالوا اللهم راجع به.

وذكر ابن أبى الدنيا عن أحمد بن أبى الحوارى قال: حدثنى محمد أخى، قـال: «دخل عـباد بن عـبـاد على إبراهيم بن صـالح وهو على فلسطين، فـقال: عظنى، قـال: بم أعظك؟ أصلحك الله. . . بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقـاربهم الموتى، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك؟ فبكى إبراهيم حتى اخضلت لحيته».

قال ابن أبى الدنيا: وحدثنى محـمد بن الحسين، وحدثنى خالد بن عمرو الأموى، حدثنا صدقة بن سليـمان الجعفرى قال: كنت قد أذنبت ذنبا - ثم أنبت وتبت وندمت على مـا فرطت، قال: ثم زللت أيما زلة، فرأيت فى المنام، فـقال: أى بنى: ما كـان أشد فرحى بك . . أعـمالك تعرض علينا فنشبهها بأعمال الصالحين، فلما كانت هذه الزلة: استحييت لذلك حـياء شـديدًا فلا تحـزنى، فمن حـولى الأموات. . قـال: فكنت أسمعه بـعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر - وكـان جاراً لى بالكوفة: أسـألك إنابة لا رجعـة فـيهـا ولا حورًا يا مـصلح الصـالحين ويا هادى المضلين ويا أرحم الراحمين:

وهذا باب فى آثار كثيرة عن الصحابة، وكان بعض الأنصار من أقارب عبدالله بن رواحة يقول: اللهم إنى أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبدالله بن رواحة كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبدالله.

ويكفى فى هذا تسمية المسلم عليهم زائر ولولا أنهم يشعرون به، لما صح تسميته زائرًا فإن المزور إن لم يعلم بزيارة من زاروه: لم يصح أن يقال زاره.

هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم، وكذلك: السلام عليهم أيضًا.. فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلم: محال.

وقد علم النبى ﷺ أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية».

قال يزيد بن هارون: أخبرنا سليمان التيمى، عن أبى عثمان النهدى أن ابن ساس خرج فى جنازة فى يوم وعليه ثياب خفاف فانتهى إلى قبر.. قال: فصليت ركعتين ثم اتكأت عليه فوالله إن قلبى ليقظان إذ أسمعت صوتًا فى القبر: إليك عنى لا تؤذنى فانكم قوم تعملون ولا تعلمون ونحن قوم نعلم ولا نعمل ولأن يكون لى مثل ركعتيك أحب إلى من كذا وكذا».

فهذا قد علم باتكاء الرجل على القبر وبصلاته. وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى الحسين بن على العجلى حدثنا محمد بن الصلت، حدثنا إسماعيل بن عياش عن ثابت بن سليم حدثنا أبو قلابة، قال: أقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت منزلاً فتطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسى على قبر فنمت ثم انتبهت، فإذا صاحب القبر يشتكينى، يقول: قد آذيتنى منذ الليلة.. ثم قال: إنكم تعملون ولا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال: الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها. ثم قال: جزى الله أهل الدنيا خيرًا.. أقرئهم منا السلام، فإنه يدخل علينا من دعائهم نورًا أمثال الجبال».

استئناس الميت بالمشيعين لجنازته

ثبت فى الصحيح أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه. . .

روى مسلم فى صحيحه من حديث عبدالرحمن بن شماسة المهدى، قال: «حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياق الموت، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: ما يبكيك يا أبتاه؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا، فأقبل بوجهه، فقال: إن أفضل ما بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإنى كنت على أطباق ثلاث، لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضًا لرسول الله ﷺ منى ولا أحب إلى أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار. فلما جعل الله الإسلام فى قلبى: لقيت رسول الله ﷺ، فقلت: أبسط يديك فلأبايعك، فبسط يمينه قال: فقبضت يدى، قال: فقال: مالك يا عمرو؟ قال: قلت: أردت أن أشترط قال: تشترط ماذا؟ قلت أن يغفر لى. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله، وما كان أحدًا أحب إلىّ من رسول الله ﷺ، ولا أجل فى عينى منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاً له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأنى لم أكن أملأ عينى منه، لو مت على تلك الحال: لرجوت أن أكون من أهل الجنة. . ثم ولينا أشياء ما أدرى ما حالى فيها، فإذا أنا مت فلا تصاحبنى نائحة ولا نار، فإذا دفنتمونى: فسنوا على التراب سنا ثم أقيموا حول قبرى قدر ما تنمر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربى.

فدل ذلك على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويسر بهم.

وقد ذكر عن جماعة من السلف الصالح أنهم أوصوا أن يقرأ عند قبورهم وقت الدفن.

قال عبدالحق: يروى أن عبدالله بن عمر أمر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة. وممن رأى ذلك: المعلى بن عبدالرحـمن وكان الإمام أحمد منكر ذلك أولاً، حيث لم يبلغه فيه أثر، ثم رجع عن ذلك.

الماديون والموت

إن الصلة بين الحى والميت أكبر وأستر وأقوى من صلة الأحياء بالأحياء. وخاطئ كل الخطأ: من ظن أن الموت حكم بالإعدام وهذا ما يردده الماديون الغافلون المضلون، إن الموت مرحلة انتقال من عالم الفناء إلى عالم الخلود والبقاء.

انتقال من جوار الخلق إلى رحاب الحق. انكشاف للحجب الكثيفة. **﴿لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾**[1].

والذى أوقع الماديين فى هذه الهوة السحيقة من الضلال حتى ذهبوا إلى فهم الموت على أنه انطفاء الحرارة وتحلل الرطوبات وقالوا: ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما هى إلا الأرحام تدفع وأرض تبلع.

الذى أوقعهم فى هذا الضلال: أنهم قاسوا الغائب على الشاهد وطلبوا المحسوس فى غير المحسوس سقط خلفه يعم عن المحسوس كغشاء عين الخفافيش عن رؤية الأجسام البينة لنا فى ضوء الشمس:

قل لهؤلاء الماديين الحسيين: وهل نحن أبصرنا قوانين الكون، وهل وقعت أجزاؤه تحت حسنا، هل رأت أبصارنا الأشعة فوق البنفسجية أو تحت الحمراء؟

هل أدركنا حقيقة المغناطيسية أو الجاذبية أو الضوء أو الأثير؟

هل وقعت أيدينا على هذه الحقائق الماثلة فى هذا الكون الرحيب؟

فإذا كنا لم ندرك حقيقتها .. فكيف تصل عقولنا إلى أن نكيف

(١) سورة ق الآية ٢٢.

عالم البرزخ، وهو محيط أعنف من أن يعجز عبابه سباح ماهر.

إن إدراك عالم البرزخ: ليس مجاله الحسن كما أن العقل يقف واجمًا أمام بحاره.

إنما طريقه: الوحى المعصوم.

فإن الموت أمر متعلق بالروح، قال تعالى: **﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى .. وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾**[1].

تعلقات الروح بالبدن

اعلم. وفقنى الله وإياك أن للروح خمسة تعلقات بالبدن:

التعلق الأول:

تعلقها به فى عالم الأرحام: فبعد أن مضت مدة النطفة فالعلقة، فالمضغة: نفخ الله فينا الأرواح... قال تبارك اسمه: **﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. الذى أحسن كل شىء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾**[2].

التعلق الثانى:

تعلقها بالبدن فى هذه الدنيا حيث تقوم ببث الحياة فينصرف البدن ويباشر أعباء الحياة قال تبارك اسمه: **﴿ثم أنشأناه خلقًا آخر ... فتبارك الله أحسن الخالقين﴾**[3].

التعلق الثالث:

تعلقها بالبدن عند النوم فإنها وقتذاك يكون لها مباشرة من وجه خاص.. قال جل شأنه: **﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت**

(١) سورةا لإسراء الآية ٨٥. (٢) سورة السجدة الآيات [٦:٩].

(٣) سورة المؤمنون الآية ١٤.

في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[1].

التعلق الرابع:

تعلقها بالبدن بعد الموت في عالم البرزخ.. قال تعالى: **﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحًا فيما تركت.. كلا .. إنها كلمة هو قائلها، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾[2].**

التعلق الخامس:

تعلقها به يوم القيامة بعد البعث.. قال جل جلاله: **﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأشرقت الأرض بنور ربها﴾[3].**

وقال عز من قائل: **﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾[4].**

ملاحظة جديرة بالاعتبار

من تأمل التعلقات السابقة: يلاحظ أن كل مرحلة من هذه المراحل أوسع أفقًا وأرحب منزلة عما قبلها.

ولذا قيل: إن خروج المؤمن من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة: كخروج الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا:

فتعلق الروح بالجنين في الرحم مكان ضيق، وتعلقها به في الدنيا حال اليقظة مكان أوسع، وتعلقها به في المنام أرحب وأوسع حيث تنتقل الروح في أرجاء الكون.

والموت أوسع وأوسع:

فقد جاء في الحديث: «لتموتن كما تنامون».

ولأن الموت تخلص من ظلمة المادة مما يعطي الروح رحابة أفق.

وتعلقها به بعد البعث: أشد رحابة وأوسع أفقًا.

---

(١) سورة الزمر الآية ٤٢.
(٢) سورة المؤمنون الآية ١٠٠.
(٣) سورة الزمر الآيتان [٦٨ ، ٦٩].
(٤) سورة المؤمنون الآيتان [١٥ ، ١٦].

قال تعالى: ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾[1].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يقول فيهم: ﴿فأما إن كان من المقربين، فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين﴾[2].

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.. ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾[3].

وصلى الله على سيدنا محمد البشير النذير وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين واحشرنا فى زمرتهم يا رب العالمين . آمين.

فصل
المراقبة والمحاسبة

اعلموا أيها العقلاء أنكم غدًا بين يدى الله موقوفون وعن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فاليوم عمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل.

غدًا توفى النفوس ما كسبت
ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم
وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

قيل لتقى الدين الحسن البصرى -رضى الله عنه-: أى الأيام عندك عيد فقال: كل يوم لا أعصى الله فيه فهو عيد.

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى
تقلب عريانًا ولو كان كاسيا

(٢) سورة ق الآية ٢٢.   (٢) سورة الواقعة الآيات [٨٨ : ٩١].
(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

وخير لبـاس المرء طـاعة ربـه

ولا خير فيمن كان لله عاصـيا

كان فاروق هذه الأمة -رضى الله عنه- إذا أخذ مـضجعه لينام كان يردد هذا النشيد المصـحوب بالتشنج: كان يسأل نفسـه هذا السؤال: ماذا تقول لربك غدًا يا عمر؟ لقد كنت ضالاً فهداك الله وكنت ضعيفًا فرفعك الله وكنت ذليـلاً فأعـزك الله، فمـاذا تقـول لربك غدًا؟ فـهذا الفـاروق يحاسب نفسـه وهو الذى كان يقول: لو عثرت بغـلة فى العراق لسألنى الله عنها لم لم تصلح لها الطريق يا عمر؟ وكان يقول رحم الله امرءًا أهدى إلىّ عيـوبي وكان يقول لأهله: اتقـوا الله يا آل عمـر فإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطيـر إلى اللحمة وكان يخاف من الله خوف مـن يعتقد أن النار لم تخلق إلا له وحده وكـأنه يقول: لو نادى مناد يوم القيامة كل الناس يدخلون الجنة إلا واحدًا لخشيت أن أكون أنا ذلك الواحد.

وكان يقول: والله ما قبلت الخلافة إلا كـما يقبلها المضطر أكل الميتة وإن مثلى وأمة محمد كمثل الوصى على مال اليتيم إن وجد استغنى وإن لم يجد أكل بالمعروف يرحمك الله يا أمير المؤمنين.

يا رافع راية الشـورى وحارسـهـا

جزاك ربك خـيرًا عن محـبيهـا

رأى الجماعة لا تشـقى البلاد بـه

رغم الخلاف ورأى الفرد يشـقيها

إن جاع فى شـدة قوم شـاركتهم

فى الجوع أو تنجلى عنها غواشيها

جـوع الخـليفـة والدنيـا بقبضـته

فى الزهد منزلة سـبحان موليها

فمن يبارى أبا حفص وسـيرته

أو من يحاول للفاروق تشـبيها

يوم اشتهت زوجته الحلوى فقال لها

من أين لى ثمن الحلوى فأشـريها

مازاد عن قوتنا فالمسلمون به

أولى فقومى لبيت المال رديها

كذاك أخلاقه كانت وما عهدت

بعد النبوة أخلاق تحاكيها

هذا هو أمير المؤمنين فانظروا كيف يحاسب نفسه واعجبوا كيف يقول: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا؟.

فما للعيون أصبحت لا تدمع وما للآذان أصبحت لا تسمع وما للقلوب أصبحت لا تخشع وما للأبدان أصبحت لا تسجد ولا تركع.

عجبت لمن يؤمن بالقدر ثم هو يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالرزق ثم هو ينصب، وعجبت لمن يؤمن بالموت ثم هو يفرح، ثم يؤمن بالنار ثم هو يضحك، وعجبت لمن يؤمن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن لها.

يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى -رضى الله عنه- فى كتاب الإحياء:

وفى كتاب المراقبة والمحاسبة ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت، المطلع على ضمائر القلوب إذا هى هجست، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض تحركت أو سكنت، المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت

وخسـرت، فسبـحان من عمت نعـمه كافة العـباد وشملت واسـتغرقـته رحمـته الخلائق فى الدنيـا والآخرة، وغمرت فـبنفحات فـضله اتسعت القلوب للإيمان وانشـرحت وبيمـن توفيـقه تغـيرت الجـوارح بالعبـارات وتأدبت وبحـسن هدايته انجلت عـن القلوب ظلمات الجـهل وانقشـعت وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت، وبتـيسيره تيسرت من الطاعات مـا تيسرت فمنه العطاء والجزاء والإبعاد والإدناء والإسعاد والإشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء.

أما بعد فقد قال الله تعالى: ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شـيـئًا وإن كـان مـثقـال حبة من خـردل أتينا بهـا وكـفى بنا حاسبين**﴾[1]. وقال تعالى: ﴿**ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيـه ويقـولون يا ويلتنا ما لهـذا الكتاب لا يـغادر صـغيـرة ولا كبـيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلم ربك أحدًا**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**يوم يبعثهم الله جـميعًا فينبئـهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد**﴾[3].

وقال تعالى: ﴿**يومئذ يصدر الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره**﴾[4].

وقال تعالى: ﴿**ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**﴾[5].

وقال تعالى: ﴿**يوم تجد كل نفس مـا عملت من خيـر محضـرًا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا ويحذركم الله نفسه**﴾[6].

وقال تعالى: ﴿**واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه**﴾[7].

فعرف أرباب البـصائر من جملة العباد أن الله تـعالى لهم بالمرصاد

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٧.
(٢) سورة الكهف الآية ٤٩.
(٣) سورة المجادلة الآية ٦.
(٤) سورة الزلزلة الآيات [٦ :٨].
(٥) سورة آل عمران الآية ١٦١.
(٦) سورة آل عمران الآية ٣٠.
(٧) سورة البقرة الآية ٢٣٥.

وأنهم سيناقشون فى الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس فى الأنفاس والحركات ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف فى القيامة حسابه وحضر عن السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسرته وطالت فى عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزى والمقت سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا**﴾[1].

فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ولابد من شرحها وبيان حقيقتها وفضليتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة، ولكن كل حساب فبعده مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة، فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق.

(المقام الأول من المرابطة والمشارطة)

اعلم أن مطلب المتعاملين فى التجارات المشتركين فى البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العاقل هو التاجر فى طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس، لأن بذلك فلاحها قال تعالى ﴿**قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها**﴾[2].

وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس فى هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذى يتجر فى ماله وكما أن الشريك يصير خصمًا منازعًا يجاذبه فى الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولاً ويراقبه ثانيًا ويحاسبه ثالثًا ويعاقبه

---

(١) سورة النساء الآية ٢٠٠.   (٢) سورة الليل الآيتان [٩ : ١٠].

أو يعاتبه رابعًا، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولاً فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء فتدقيق الحساب فى هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه فى أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء ولا خير فى خير لا يدوم، بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لأن الشر الذى لا يدوم إذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائمًا وقد انقضى الشر، والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائمًا وقد انقضى الخير ولذلك قيل:

أشد الغم عندى فى سرور   تيقن عنه صاحبه انتقالا

فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها فى حركاتها وسكناتها وخطراتها وحظواتها، فإن النفس من أنفاس العمر كجوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه آبد الآباد، فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول: للنفس ما لى بضاعة إلا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه وأنا فى أجلى، وأنعم علىّ به ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوماً واحدًا حتى أعمل فيه صالحًا فاحسبى أنك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن

تضيعى هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمى يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وقد ورد فى الخبر «أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التى عملها فى تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هى وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها وهى الساعة التى عصى الله فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه وهى الساعة التى نام فيها أو غفل أو اشتغل بشىء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير، وهكذا الملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته وناهيك به حسرة وغبنا، وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهدى اليوم فى أن تعمرى خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التى هى أسباب ملكك ولا تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم الغبن والحسرة لا يطاق وإن كان دون من النار وقد قال بعضهم: هب أن المسىء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين.

أشار به إلى الغبن والحسرة وقال تعالى **﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن﴾**(١). فهذه وصيته لنفسه فى أوقاته ثم ليستأنف لها وصية فى أعضائه السبعة، وهى: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه فى هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة، وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء

---

(١) سورة التغابن الآية ٩.

فيوصيها بحفظها عن معاصيها أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم أو إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر فى كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة وهكذا ينبغى أن يفصل الأمر عليها فى عضو عضو لا سيما اللسان والبطن، أما اللسان فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه فى الحركة وجنايته عظيمة بالغيب والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والأطعمة واللعن والدعاء على الأعداء والممارة فى الكلام وغير ذلك. فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا فى الذكر، فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة **﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾**(1).

وأما البطن فيكلفه ترك الشر وتقليل الأكل من الحلال، واجتناب الشبهات ويمنعه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة ويشترط على نفسه أنها إن خالفت شيئًا من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها، وهكذا يشرط عليه فى جميع الأعضاء واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصى الأعضاء وطاعتها ثم يستأنف وصيتها فى وظائف الطاعات التى تتكرر عليه فى اليوم والليلة ثم فى النوافل التى يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها، وهذه شروط يفتقر إليها فى كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أيامًا وطاوعته نفسه فى الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها وإن أطاع فى بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقى، ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم

---

(1) سورة ق الآية ١٨.

جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ولله عليه فى ذلك حق ويكثر هذا على من يشتغل بشىء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق فى مجاريها ويحذرها مغبة الإهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فإن النفس بالطبع متمردة على الطاعات مستعصية على العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها. ﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾[1]. فهذا وما يجرى مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس وهى محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير.

قال تعالى: ﴿**واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه**﴾[2].

وهذا للمستقبل وكل نظر فى كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان يسمى محاسبة فالنظر فيما بين يدى العبد فى نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن ضربتم فى سبيل الله فتبينوا**﴾[3]. وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا**﴾[4]. وقال تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه**﴾[5]. ذكر ذلك تحذيرًا وتنبيهًا للاحتراز منه فى المستقبل...

وروى عبادة بن الصمات أنه عليه الصلاة والسلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه «إذا أردت أمرًا فتدبر عاقبته فإن كان رشدًا فأمضه وإن كان غيًّا فانته عنه».

وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن يكون العقل غالبًا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة فى القلب أكثر من مكث خفة الشهوة وقال لقمان: إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة.

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٥.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٥.
(٣) سورة النساء الآية ٩٤.
(٤) سورة الحجرات الآية ٦.
(٥) سورة ق الآية ١٦.

وروى شداد بن أوس عنه ﷺ أنه قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى».

ودان نفسه: أى حاسبها ويوم الدين: يوم الحساب.

وقوله أئنا لمدينون: أى لمحاسبون. وقال عمر -رضى الله عنه-: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيئوا للعرض الأكبر.

وكتب إلى أبى موسى الأشعرى حاسب نفسك فى الرخاء قبل حساب الشدة. وقال لكعب كيف تجدها فى كتاب الله؟ قال: ويل لديان الأرض من ديان السماء، فعلاه بالدرة وقال إلا من حاسب نفسه. فقال كعب: يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها فى التوراة ما بينهما حرف إلا من حاسب نفسه وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال: من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولاً وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها.

(المرابطة الثانية المراقبة)

إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض فى الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة فإنها إن تركت طغت وفسدت ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها.

أما الفضيلة: فقد سأل جبريل -عليه السلام- الرسول ﷺ عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه» وقال عليه السلام «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وقد قال تعالى ﴿**أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت**﴾[1]. وقال تعالى: ﴿**ألم يعلم بأن الله يرى**﴾[2] وقال الله تعالى: ﴿**إن الله عليكم رقيبًا**﴾[3] وقال تعالى: ﴿**والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون**﴾[4].

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٣.
(٢) سورة العلق الآية ١٤.
(٣) سورة النساء الآية ١.
(٤) سورة المعارج الآيتان [٣٢ ، ٣٣].

وقال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال: كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل. وقال عبد الواحد بن زيد: إذا كان سيدى رقيبًا علىّ فلا أبالى بغيره». وقال أبو عثمان المغربى: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه فى هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم. وقال ابن عطاء: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات. وقال الجريري: أمرنا هذا مبنى على أصلين أن تلزم نفسك المراقبة لله -عز وجل- ويكون العلم على ظاهرك قائمًا. وقال أبوعثمان: قال لى أبو حفص: إذا جلست للناس فكن واعظًا لنفسك وقلبك ولا يغرنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك.

وحكى أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ؟ فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائرًا وسكينًا وقال: ليذبح كل واحد منكم طائره فى موضع لايراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم، فرجع كل واحد بطائره مذبوحًا ورجع الشاب والطائر حى فى يده فقال: مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك: فقال: لم أجد موضعًا لا يرانى فيه أحد إذ الله مطلع علىّ فى كل مكان. فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا: حق لك أن تكرم.

وحكى أن زليخا لما خلت بيوسف -عليه السلام- قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف: مالك أتستحيين من مراقبة جماد ولا تستحين من مراقبة الملك الجبار. وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت: له ألا تستحى فقال: ممن أستحى؟ وما يرانا إلا الكواكب، قالت: فأين مكوكبها؟

وقال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر، فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه.

وقال الجنيد: إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه

-عز وجل- وعن مالك بن دينار قال: جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له: ومن يسكنها؟ قال يقول الله -عز وجل- إنما يسكن عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني والذين انثنت أصلابهم من خشيتى وعزتى وجلالى إنى لأهم أن أعذب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتى صرفت عنهم العذاب. وسئل المحاسبى عن المراقبة فقال: أولها علم القلب بقرب الرب تعالى. وقال المرتعش: المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة. ويروى أن الله تعالى قال لملائكته: أنتم موكلون بالظاهر، وأنا الرقيب على الباطن.

وقال محمد بن على الترمذى: اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه.

وقال سهل: لم يتزين القلب بشىء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان.

وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿**رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه**﴾(١). فقال معناه ذلك لمن راقب ربه -عز وجل- وحاسب نفسه وتزود لمعاده. وسئل ذو النون بم ينال العبد الجنة؟

فقال: بخمس: استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى فى السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل
خلوت ولكن قل علىّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

(١) سورة البينة الآية ٨.

ألم تر أن اليوم أسـرع ذاهب
وأن غدًا للناظـرين قـريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن على: عظنى، فقال: لئن كنت إذا عصيت الله خاليًا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت.

وقال سفيان الثورى: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة، وقال فرقد السنجى إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحدًا دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى، وقال عبدالله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- إلى مكة فغرسنا فى بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال: يا راعى بعنى شاة من هذه الغنم، فقال: أنا مملوك، فقال: قل لسيدك: أكلها الذئب، قال: فأين الله؟ قال: فبكى عمر ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه، وقال: أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك فى الآخرة.

(بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها)

اعلم أن حقيقة المراقبة هى ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه قمت احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال: إنه يراقب فلانًا ويراعى جانبه ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يشمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالاً فى الجوارح أما الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتقائه إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه وأما المعرفة التى تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب فى حقه مكشوف كما أنه ظاهر البشرة للخلق مكشوف، بل أشد من ذلك فهذه المعرفة إذا صارت يقينًا أعنى أنها خلت على الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته، فرب علم لا شك فيه ولا يغلب على القلب كالعلم

بالموت، فإذا استولت على القلب استعجزت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين، فمراقبتهم على درجتين: الدرجة الأولى: مراقبة المقربين من الصديقين وهى مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقًا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرًا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً وهذه مراقبة لا نطول النظر فى تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب، أما الجوارح فإنها تتعطل على التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة لها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت فى حفظها على سعت السداد بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعى، والقلب هو الراعى فإذا صار مستغرقًا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذى صار همه همًّا واحدًا فكفاه الله سائر الهموم، ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمر على ابنه مثلاً فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك فقال له عاتبه: إذا مررت بى فحركنى ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظر هذا فى القلوب المعظمة لملوك الأرض حتى أن خدم الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشتمل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل فى الفكر فيه ويمشى فربما يجاوز الموضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له وقد قيل لعبدالواحد بن زيد: هل تعرف فى زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله من الخلق؟ فقال: ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعًا حتى دخل عتبة الغلام فقال له عبدالواحد بن زيد: من أين جئت يا عتبة فقال: موضع كذا وكان طريقه على السوق، فقال: من لقيت فى الطريق فقال: ما رأيت أحداً.

ويروى عن يحيى بن زكريا -عليهما السلام- أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له: لم فعلت هذا؟ فقال: ما ظننتها إلا جدارًا، وحكى عن بعضهم أنه قال: مررت بجماعة يرامون وواحد جالس بعيدًا عنهم فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال: ذكر الله تعالى أشهى، فقلت: أنت وحدك، فقال: معى ربى وملكانى، فقلت: من سبعة من هؤلاء فقال: من عز الله له، فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء، وقام ومشى وقال أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه فهو لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه.

ودخل الشبلى على ابن الحسين النوري وهو معتكف فوجده ساكنًا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شىء فقال له: من أين أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: سنور كانت لنا فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأسى الحجر لا تتحرك لها شعرة، وقال أبو عبدالله بن خفيف: خرجت من مصر أريد الرملة للقاء ابن على الروذبارى، فقال لى عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد: إنه فى صور شابًا وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة فلو نظرت إليها نظرة لعلك تستفيد منه فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقة وليس على كتفى شىء فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلى القبلة، فسلمت عليهما فما أجابانى فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب، فقلت: نشدتكما بالله ألا رددتما على السلام فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلى وقال: يا بن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير يابن خفيف ما أقل شغلك حتى تفرغ إلى لقائنا قال فأخذ بكليتى ثم طأطأ رأسه فى المكان، فبقيت عندها حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعى وعطشى وعنائى فلما كان وقت العصر قلت عظنى فرفع رأسه إلىّ وقال: يابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة

أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئًا ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى أحلفهما أن يعظانى لعلى أن أنتفع بعظتهما فرفع الشاب رأسه، وقال: يابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك.

الدرجة الثانية: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم على يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو من المراقبة، نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجبون إلا بعد التثبت منه ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به فى القيامة فإنهم يرون الله فى الدنيا مطلعًا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فإنك فى خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبى أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحى منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك لا عن جلال وتعظيم بل عن حياء فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء فيك وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلاً به لا حياء منه، فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله تعالى، ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته، وبالجملة جميع اختياراته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل، ونظر فى العمل، أما قبل العمل فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو من هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق فإن كان لله تعالى أمضاه وإن كان لغير الله استحيا من الله وأنكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه

وهمه به وميله إليه وعرفها سوء فعلها وسعـيها فى فضيحتها وإنها عدوة نفسهـا إن لـم يتداركها الله بعـصمته وهذا التـوقف على بداية الأمور إلى حد البـيان واجب محتـوم لا محيص لأحـد عنه فإنه فى الخبـر أن ينشر للعـبد فى كل حركـة من حركـاته وإن صغـرت ثلاثة دواوين، الديوان الأول: لم. الثانى: كيف. الثالث: لمن.

ومـعنى لم: أى لم فعلت هذا، أكـان عليك أن تفـعله لمولاك، أو ملت إليـه بشهـوتك وهواك فإن سلم منه بأن كـان عليه أن يعـمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى فقيل له: كيف فعلت هذا؟ فإن لله فى كل عمل شرطًا وحكمًا لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال له: كيف فعلت أبـعلم محقق أم بجـهل وظن؟ فإن سلم من هذا الـشر. الديوان الثالث: وهو المطالبة بالإخلاص فيـقال له: لمن عملت ألوجه الله خالصًا وفـاء بقولك لا إله إلا الله فـيكون أجـرك على الله أو لمرآة خلق مـثلك فخذ أجرك منه إن عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا أم عملته بسهو وغفلة فقد سـقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وإن عملت لغيرى فقد استوجـبت مقتى وعقابى إذ كنت عبدا لى تأكل رزقى وتترفه بنعمتى ثم تعمل لغيرى أما سمعتنى أقول: ﴿**إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم**﴾[1] ﴿**إن الذين تعبـدون من دون الله لا يملكون لكم رزقًا فـابتغوا عند الله الرزق واعـبدوه**﴾[2]. ويحك أما سمـعتنى أقول: ﴿**ألا لله الدين الخـالص**﴾[3] فإذا عـرف العبـد أنه بصدد هذه المطـالبات والتـوبيخـات طالب نفســه قبل أن تطالب وأعـد للسؤال جـوابًا وليكن الجواب صوابًا فـلا يبدئ ولا يعيد إلا بعـد التثبيت ولا يحـرك جفنا ولا أنملة إلا بعد التأمل وقد قال النبى ﷺ لمعاذ: «إن الرجل ليسئل عن كحل عينيه وعن فته الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه».

وقال الحسن: كـان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصـدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه.

---

(١) سورة الأعراف [الآية ١٩٤]. (٢) سورة العنكبوت [الآية ١٧].

(١) سورة الزمر [الآية ٣].

وقال الحسن: -رحمه الله تعالى- عبدًا وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر وقال فى حديث سعد حين أوصاه سلمان (اتق الله عند همك إذا هممت)

وقال محـمد بن على: إن المؤمن وقاف متـآن يقف عند همه ليس كما طلب ليل.

فهذا هو النظر الأول فى هذه المراقـبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفـة الحقيقيـة بأشرار الأعمال وأغـوار النفس ومكايد الشيطان فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه أبلى ولم يعرف ما يوافقه هواه وله يمين بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه فى نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم فى هذا المراقبة، بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحـسبون أنـهم يحسنون صنعـا ولا تظن أن الجاهل بما يقـدر على التعلم فـيه يعذر هيهـات بل طلب العلم فريضة على كل مـسلم، ولهذا كانت ركعـتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غـير عالم؛ لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الـشيطان ومواضع الغرور فيـتقى ذلك والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فـلا يزال الجاهل فى تعب والشيطان منه فى فرح وشماتة، فنعوذ بالله من الجهل والغـفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران.

فحكم الله تعـالى على كل عبد أن يراقـب نفسه عند همـه بالفعل وسعـيه بالجارحـة فيتـوقف عن الهم وعن السعى حـتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهـوى النفس فتبقيه ويزجر القلب من الفكر فيـه وعدلهم به فإن الخطوة الأولى فـى الباطن إذا لم تدفع أورثت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والقصد يورث العقل والفعل يورث البوار والمقت فـينبغى أن تحسم مادة الشـر من منبعه الأول وهو الخاطر فـإن جميع مـا وراءه يتبعه، مـهما أشكل على العـبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر فى ذلك بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الـهوى فإن عجـز عن الاجتهاد والفكر بنفـسه

فيستضىء بنور علماء الدين وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد فقد أوصى الله تعالى إلى داود عليه السلام:

«لا تسأل عنى عالمًا أسكره حب الدنيا فيقطعك من محبتى أولئك قطاع الطريق على عبادى» فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فإن استفاء أنوار القلوب حضرة الربوبية، فكيف يستضىء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقتيها وهى شهوات الدنيا فلتكن همة المريد أولاً فى أحكام العلم أو فى طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات».

جمع بين الأمرين وهما مثلا زمان حقًا فمن ليس له عقل وازع من الشهوات فليس له بصر ناقد فى الشبهات، ولذلك قال عليه السلام: «من قارف ذنبًا فارقه عقل لا يعود إليه أبدًا» فما قدر العقل الضعيف الذى سعد الآدمى به حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست فى هذه الأعمار فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق فى الخصومات الثائرة فى اتباع الشهوات وقالوا: هذا هو الفقه وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذى ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه وفى الخبر.

(أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المتثبت)

ولهذا توقف طائفة من الصحابة فى القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمر

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣٦.

وأسامة، ومحمد بن مسلمة، وغيرهم، فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعًا لهواه معجبًا برأيه وكان ممن وصفه رسول الله ﷺ إذا قال:

(فإذا رأيت شحًّا مطاعًا وهوى متبعًا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك).

وكل من خاض فى شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى ﴿**ولا تقف ماليس لك به علم**﴾[1].

وقوله عليه السلام: (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث).

وأراد به ظنًا بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق -رضى الله عنه- (اللهم أرنى الحق حقًا وارزقنى اتباعه وأرنى الباطل باطلاً وارزقنى اجتنابه ولا تجعله متشابهًا على فأتبع الهوى).

وقال عيسى عليه السلام: (الأمور ثلاثة أمر استبان رشده فاتبعه، وأمر استبان غيه فاجتنبه، وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه).

وقد كان من دعاء النبى ﷺ:

(اللهم إنى أعوذ بك أن أقول فى الدنيا بغير علم).

فأعظم نعمة على عباده هو العلم وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتنانًا على عبده: ﴿**وكان فضل الله عليك عظيما**﴾[2] - وأراد به العلم وقال تعالى: ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾[3]. ﴿**إن علينا للهدى**﴾[4].

وقال تعالى: ﴿**ثم إن علينا بيانه**﴾[5].

وقال: ﴿**وعلى الله قصد السبيل**﴾[6].

---

(١) سورة لأسراء الآية [٣٦].
(٢) سورة النساء الآية ١١٣.
(٣) سورة الأنبياء الآية ٧.
(٤) سورة الليل الآية ٧.
(٥) سورة القيامة الآية ٦.
(٦) سورة النحل الآية ٩.

وقال على -كرم الله وجهه-: الهوى شريك العمى ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طارد الهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفى الصدق السلامة رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصديق من صدق غيبه ولا يعرفك من حبيب سوء ظن نعم الخلق التكرم والحياء سبب إلى كل جميل وأوثق العمر التقوى، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك.

وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما فى يديك فلا تجزع على مالم يصل إليك واستدل على مالم يكن بما كان قائمًا الأمور أشباه والمرء يسره درك مالم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحًا وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفًا وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما حلقت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت وغرضًا من نقل هذه الكلمات قوله، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة.

فإذن النظر الأول للمراقب نظره فى الهم والحركة أهى لله أم للهوى وقد قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشىء من علمه وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا».

وأكثر ما ينكشف له فى حركاته أن يكون مباحًا ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله ﷺ «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

النظر الثالث: للمراقبة عند الشروع فى العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه، ويحسن النية فى إتمامه، ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكن وهذا ملازم له فى جميع أحواله فإنه لا يخلو فى جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى فى جميع

ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب.

فإن كان قاعدًا مثلاً فينبغى أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ: «خير المجالس ما استقبل به القبلة».

ولا يجلس متربعًا إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه، قال إبراهيم بن أدهم -رحمه الله-: جلست مرة متربعًا فسمعت هاتفًا يقول: هكذا تجالس الملوك، فلم أجلس بعد ذلك متربعًا وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التى ذكرناها فى مواضعها فكل ذلك داخل المراقبة بل لو كان فى قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة.

فإذن لا يخلو العبد إما أن يكون فى طاعة أو فى معصية أو فى مباح فمراقبته فى الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات وإن كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر وإن كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الأدب.

ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد فى جملة أحواله عن بلية لابد له من الصبر عليها ونعمة لابد له من الشكر عليها.

وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد فى كل حال من فرض الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته، ولكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المراقبة.

فينبغى أن يتفقد العبد نفسه فى جميع أوقاته فى هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغًا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغى أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مبغون والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى: ﴿**ولا تنس نصيبك من الدنيا**﴾[(١)].

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث: ساعة مضت لا تعب فيها على العبد.

---

(١) سورة القصص الآية ٧٧.

كيفما انقضت فى مشقة أو رفاهية، وساعة مستقبلية لم تأت بعد لايدرى العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدرى ما يقضى الله فيها، وساعة راهنة ينبغى أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وإن أتته الساعة الثانية استوفى فى حقه منها كما استوفى من الأول ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون فى وقته كأنه فى آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدرى وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغى أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر -رضى الله عنه- من قوله عليه السلام.

(لا يكون المؤمن ظاعنًا إلا فى ثلاث: تزود لمعاد، أو مرقة لمعاش، أو لذة فى غير محرم).

وما روى عنه أيضًا فى معناه (وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر فيها فى صنع الله وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب).

فإن هذه الساعة عونًا على بقية الساعات ثم هذه الساعات التى هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذى يتناوله فيلاقيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل مركز من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام:

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون فى عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه كما فصلنا بعضه فى كتاب الشكر، وهذا مقام ذوى الألباب وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهية.

ويلاحظون وجه الاضطرار إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته وهذا مقام الزاهدين، وقوم يرون فى الصفة الصانع ويترقون بها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك

سببًا لتذكر أبواب من الفكر تتفتح عليهم بسببه، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيعه نسى الصنعة واشتغل قلبه بالصانع، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله -عز وجل- فله فى النظر منه إلى الصانع مجال رحب إذا فتحت له أبواب الملكوت، وذلك عزيز جدًا.

وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتآسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته ويذجون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى.

وإن من ذم شيئًا خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبى ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر».

المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل

ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها

أما الفضيلة فقد قال تعالى ﴿**يأيها الذين آمنو اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد**﴾[1] وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال ولذلك قال عمر -رضى الله تعالى عنه-: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وفى الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال: يا رسول الله أوصنى، فقال: استوصت أنت، فقال: نعم، قال: إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشد فأمضه وإن كان غيًا فانته عنه»

وفى الخبر ينبغى للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه وقال تعالى ﴿**وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**﴾[2] والتوبة نظر فى الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه وقد قال النبى ﷺ: «إنى لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة».

وقال الله تعالى: ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾[3].

---

(١) سورة الحشر الآية ١٨. (٢) سورة النور الآية ٣١.

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠١.

وعن عمـر -رضى الله عنه- إنه كان يضرب قدمـيه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه: ماذا فعلت اليوم، وعن ميمون بن مهران أنه قال: لا يكون العبـد من المتقين حـتى يحاسب نفسـه أشد من مـحاسبـة شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل.

وروى عن عائشة -رضى الله تعالى عنها- أن أبا بكر -رضوان الله عليه- قال لها عن الموت:

ما أحـد من الناس أحب إلىّ من عـمر ثم قـال لها: كـيف قلت؟ فأعادت عليه ما قال، فقـال: لا أحد أعز علىّ من عمر فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها.

وحديث أبى طلحة حيث شغله الطائر فى صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندمًا ورجاء للعوض مما فاته».

وفى حديث ابن سـلام أنه حمل حزمة من حطب فـقيل له: يا أبا يوسف قـد كان فى بنيك وغلمـانك ما يكفـونك هذا فـقال: أردت أن أجرب نفـسى هل تنكره وقال الحسن: المؤمن قوام على نـفسه يحاسـبها الله، وإنما خف الحساب على قـوم حاسبوا أنفسـهم فى الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيـامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محـاسبة ثم فسر المحاسبة.

فقال: إن المؤمن يفجـؤه الشىء يعجبه فيقـول: والله إنك لتعجبنى وإنك من حاجـتى ولكن هيهات حـيل بينى وبينك، وهذا حسـاب قبل العمل، ثم قال ويفـرط منه الشىء فيرجع إلى نفسه فـيقول: ماذا أردت بهذا والله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبدًا إن شاء الله.

وقال أنس بن مـالك: سمعت عـمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يومًا وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطًا فسمعته يقول وبينى وبينه جدار وهو فى الحـائط عمر بن الخطاب أميـر المؤمنين بخ بخٍ والله لنتقين الله أو ليعذبنك وقال الحسن فى قوله تعالى:

﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾[1] قال: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتى؟ ماذا أردت بأكلتى؟ ماذا أردت بشربتى؟ والفاجر يمضى قدمًا لا يعاتب نفسه، وقال مالك بن دينار -رحمه الله تعالى- رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدًا وهذا من معاتبة النفس كما سيأتى فى موضعه وقال ميمون بن مهران:

التقى أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح وقال إبراهيم التميمى:

مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها فقلت لنفسى: يا نفس أى شىء تريدين فقالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحًا، قلت: فأنت فى الأمنية فاعمل، وقال مالك بن دينار:

سمعت الحجاج يخطب وهو يقول:

رحم الله امرءً حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره رحم الله امرءً آخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به، رحم الله امرءً نظر فى مكياله، رحم الله امرءً نظر فى ميزانه فمازال يقول حتى أبكانى.

وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجىء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار، ثم يقول لنفسه يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا، ما حملك على ما صنعت يوم كذا.

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعة يطالب

---

[1] سورة القيامة الآية (٢).

فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصًا منهم على الدنيا وخوفًا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم فى فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أيامًا قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به جلب الشقاوة والسعادة أبد الآباد ما هذه المآصلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك، ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر فى رأس المال وفى الربح والخسران ليثبت له الزيادة من النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه فى المستقبل.

فكذلك رأس مال العبد فى دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصى وموسم هذه التجارة جلية النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولاً فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها فى مثلها وإن فوتها من أجلها طالبها بالقضاء وإن أداها ناقصة كلفها الجيران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفى منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش فى حساب الدنيا عن الجنيه والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يعبث فى شىء منها فينبغى أن يتقى غيبة النفس ومكرها فإنها خداعة ملبسة مكارة فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طوال نهاره وليتكفل بنفسه من الحساب ما لا سيتولاه غيره فى صعيد القيامة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته أنه لم سكت وعن سكونه لم سكن؟

فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصلح عنده قدر أدى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبًا له فيظهر له الباقى على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه.

كما يكتب الباقى الذى على شريكه على قلبه وفى جريدة حسابه ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون أما بعضها فبالغرامة والضمان وبعضها يرد عينه وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ولا يمكن

شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي عن الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يومًا يومًا وساعة ساعة.

في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة كما نقل عن توبة بن الصمة وكان بالرقة وكان محاسبا لنفسه فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هي واحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال: يا ويلتى ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خر مغشيًا عليه فإذا هو ميت فسمعوا قائلاً يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى، فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ولو رمى العبد بكل معصية حجرًا في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة قريبة من عمره ولكن يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه.

المرابطة الرابعة
في معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته، هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة.

فقد روى عن منصور بن إبراهيم أن رجلاً من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست.

وروى أنه كان فى بنى إسرائيل رجل يتعبد فى صومعته فمكث كذلك زمانًا طويلاً فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فافتتن بها وهم بها فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة فقال: ما هذا الذى أريد أن أصنع؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال: هيهات هيهات رجلى خرجت تريد أن تعصى الله تعود معى فى صومعتى لا يكون والله ذلك أبداً فتركها معلقة فى الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت فشكر الله له ذلك، وأنزل فى بعض كتبه ذكره، ويحكى عن الجنيد قال: سمعت ابن الكريبى يقول: أصابتنى ليلة جنابة فأصبحت أن أغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت فى نفسى تأخرًا وتقصيرًا فحدثتنى نفسى بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أقرأ أو أدخل الحمام ولا أشق على نفسى فقلت وا عجباه أنا أعامل الله فى طول عمرى، فيجب له على حق فلا أجد فى المسارعة وأجد الوقوف والتأخر آليت أن لا أغتسل إلا فى مرقعتى هذه وآليت أن لا انزعها ولا أعصرها ولا أجففها فى الشمس.

ويحكى أن غذوان وأبا موسى كانا فى بعض مغاريهما فتكشفت جارية فنظر إليها غذوان فرفع يده فلطم عينيه حتى بقرت وقال: إنك بلحاظة إلى ما يضرك ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طوال حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش.

ويحكى أن حسان بن سنان مر بغرفة فقال: متى بنيت هذه، ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيك لأعاقبنك بصوم سنة فصامها.

وقال مالك بن ضغيم: جاء رباح القيسى يسأل عن أبى بعد العصر فقلنا: إنه نائم.

فقال: نوم هذه الساعة هذا وقت نوم؟

ثم ولى منصرفًا فأتبعناه رسولاً وقلنا له: ألا نوقظه لك فجاء الرسول وقال: هو أشغل من أن يفهم عنى شيئا أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول: أقلت وقت نوم هذه الساعة أفكان هذا عليك ينام الرجل متى شاء وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم تتكلمين بما لا تعلمين، أما إن لله على عهدًا لا أنقضه أبدًا لا أوسدك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل سوأة لك أما تستحين كم توبخين وعن غيك لا تنتهين .

قال: وجعل يبكى وهو لا يشعر بمكانى فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته.

ويحكى عن تميم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد فقام سنة لم ينم فيها عقوبة الذى صنع.

وعن طلحة -رضى الله عنه قال-:

انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء فكان يقول لنفسه: ذوقى ونار جهنم أشد حرًا أجيفة بالليل بطالة بالنهار فبينما هو كذلك إذ أبصر النبى ﷺ فى ظل شجرة فأتاه فقال: غلبتنى نفسى فقال له النبى ﷺ: ألم يكن لك بد من الذى صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة ثم قال لأصحابه تزودوا من أخيكم فجعل الرجل يقول له: يا فلان ادع لى يا فلان ادع لى فقال النبى ﷺ عمهم فقال: اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبى ﷺ يقول: اللهم سدده، فقال الرجل: اللهم اجعل الجنة مآبهم.

وقال حذيفة بن قتادة: قيل لرجل كيف تصنع بنفسك فى شهواتها؟ فقال: ما على وجه الأرض نفس أبغض إلىّ منها، فكيف أعطيها شهواتها ودخل بن السماك على داود الطائى حين مات وهو فى بيته على التراب فقال: يا داود سجنت نفسك قبل أن تسجن، وعذبت نفسك قبل أن تعذب فاليوم ترى ثواب ما كنت تعمل له.

وعن وهب بن منبه

أن رجلاً تعبـد زمانًا ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقـام سبعين سبتًـا يأكل فى كل سبت إحدى عـشرة تمرة، ثم سأل حاجـة فلم يعطها فرجع إلى نفسه، وقال: منك أتيت لو كـان فيك خير لأعطيت حاجتك فنزل إليه ملك وقال: يا بن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت وقد قضى الله حاجتك.

وقال عبـدالله بن قيس: كنا فى غزاة لنا فـحضر العدو فـصيح فى الناس فـقامـوا إلى المصاف فى يـوم شديد الريح وإذا رجل أمـامى وهو يخاطب نفسه ويقول: أى نفسى ألم أشهـد مشهد كذا وكذا؟ فقلت لى: أهلك وعيالك فـأطعتك ورجعت، ألم أشهـد مشهد كـذا وكذا؟ فقلت لى: أهلك وعيـالك فأطعـتك ورجعت والله لأعرضنـك اليوم على الله أخذك أو تركك فقلت: لأرفضه اليوم فـرضته فحمل الناس على عدوهم فكان فى أوائلهم ثـم إن العدو حـمل على الناس فـانكشـفـوا فكان فى موضعه حتى انكشفـوا مرات وهو ثابت يقاتل فوالله مازال ذاك رأيه حتى رأيته سريعًا فـغددت به ستين أو أكثر من ستين طعنـة وقد ذكرنا حديث أبى طلحة لما اشـتغل قلبه فى الصـلاة بطائر فى حائطه فتصـدق بالحائط كفارة لـذلك، وأن عمر كان يضـرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقـول ماذا عملت اليوم؟

وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام فى الدنيا وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصـباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقـول لنفسه: ما حملك على أن صنعت يوم كذا كذا.

وانكر وهيب بن الورد شيئًا على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه ويحك إنما أريد بك الخير ورأى محمد بن بشر داود الطائى وهو يأكل عند إفطاره خبزًا بغير ملح فقال له: لو أكلته بملح فقال: إن نفسى لتدعونى إلى الملح منذ سنة ولا ذاق داود ملحًا مادام فى الدنيا.

فهكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير فى أمر وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ثم تهمل نفسك وهى أعظم عدو لك وأشد طغيانًا عليك وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الأخرة وأن فيه النعيم المقيم الذى لا آخر له ونفسك هى التى تنغص عليك عيش الآخرة فهى بالمعاقبة أولى من غيرها.

المرابطة الخامسة المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغى أن يعاقبها بالعقوبات التى مضت وإن رآها تتوانى بحكم لكسل فى شىء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغى أن يؤديها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنونًا من الوظائف جبرًا لما فات منه وتداركا لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حيث فاتته صلاة العصر فى جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة فى جماعة أحيا تلك الليلة وأخر ليلة صلاة

المغرب حتى طلع كوكبًا فأعتق رقبتين وفات ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة وكان بعضهم يجعل له على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيًا أو التصدق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها، فإن قلت إن كانت نفسى لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فى سبيل معالجتها.

فأقول: سبيلك فى ذلك أن تسمعها ما ورد فى الأخبار من فضل المجتهدين ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد فى العبادة.

فتلاحظ أقواله وتقتدى به وكان بعضهم يقول: إذا اعترتنى فترة فى العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعًا، إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد فى هذا الزمان من يجتهد فى العبادة اجتهاد الأولين، فينبغى أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شىء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد وقد انقضى تعبهم وبقى ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتع نفسه أيامًا قلائل بشهوات مكدرة ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد نعوذ بالله تعالى من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضلهم ما يحرك رغبة المريد فى الاجتهاد واقتداء بهم فقد قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أقوامًا يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى».

قال الحسن: أجهدتهم العبادة قال الله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾[1] قال الحسن يعملون ما عملوا من أعمال البر

---

[1] سورة المؤمنون الآية ٦٠.

ويخـافون أن لا ينجـيهم ذلك من عـذاب الله، وقال رسـول الله ﷺ: «طوبى لمن طال عـمـره وحـسن عـمله». ويروى أن الله تعـالى يقـول لملائكته: ما بال عـبادى مجتهدين فيـقولون: إلهنا خوفتم شيئًـا فخافوه وشوقتهم إلى شىء فـاشتاقوا إليه، فيقـول الله تبارك وتعالى: فكيف لو رآنى عبادى لـكانوا أشد اجتهـاد وقال الحسن: أدركت أقوامًـا وصحبت طوائف منهم ما كانوا يـفرحون بشىء من الدنيا أقبل ولا يتـأسفون على شىء منها أدبر ولهى كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب الذى تطؤونه بأرجلكم إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ولا جـعل بينه وبين الأرض شيئًا قط وأدركـتهم عاملين بكتاب ربهـم وسنة نبيهم إذا جنهـم الليل قيام على أطرافـهم يفتـرشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا فى شكر وسألوا الله أن يتقبلها وإذا عملوا السيـئة أحزنتهم وسـألوا الله أن يغفرها لهم والله مـازالوا كذلك، وعلى ذلك، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة.

ويحكى أن قومًا دخلوا على عمر بن عـبدالعزيز يعودونه فى مرضه وإذا فيهم شـاب ناحل الجسم فقال عمر له: يا فـتى ما الذى بلغ بك ما أرى؟ فقـال: يا أميـر المؤمنين أسقام وأمـراض، فقـال: سألتك بالله ألا صدقتنى، فقال: يا أمير المؤمنين ذقت حـلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندى زهرتها وحلاوتها واستوى عنـدى ذهبها وحجرها وكأنى أنظر إلى عـرش ربى والناس يسـاقـون إلى الجنـة والنار فـأظمـأت لذلك نهـارى وأسهرت ليلى وقليل حقير كل ما أنا فيه من جنب ثواب الله وعقابه.

وقال أبو نعيم: كان داود الطائى يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز فقيل له فى ذلك فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية ودخل رجل عليه يومًا فقال: إن فى سقف بيتك جزعًا مكسورًا فقال: يا بن أخى إن لى فى البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام.

وقال محمد بن عبدالعزيز: جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمنيه ولا يساره فقيل له فى ذلك فقال إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة.

وقالت امرأة مسروق: ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة وقالت: والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكى رحمة له.

وقال أبو الدرداء: لولا ثلاث ما أحببت العيش يومًا واحدًا الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله فى جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ننتقى أطايب الثمر، وكان الأسود بن يزيد يجتهد فى العبادة ويصوم فى الحر حتى يخضر جسده ويصفر فكان علقمة بن قيس يقول له: لم تعذب نفسك؟ فيقول: كرامتها أريد وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلى حتى يسقط فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له: إن الله -عز وجل- لم يأمرك بكل هذا، فقال: إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانة شيئًا إلا جئت به، وكان بعض المجتهدين يصلى كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فكان يصلى جالسًا ألفا ركعة فإذا صلى العصر احتبس ثم قال: عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً منك؟

عجبت للخليقة كيف أنست بسواك، بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك وكان ثابت البنان قد حببت إليه الصلاة فكان يقول: اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلى لك فى قبره فائذن لى أن أصلى فى قبرى.

وقال الجنيد:

ما رأيت أعبد من السرى أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رئى مضجعًا إلا فى علة الموت.

وقال الحارث بن سعد:

مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه فى ذلك، فقال: وما هذا عندما يراد بالخلق من ملاقاة الأهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الأكبر من ربهم فبكى القوم عن آخرهم.

وعن ابن محمد المغازلى قال: جاور أبو محمد الجريرى بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يمد رجليه فعبر عليه أبو بكر الكسائى فسلم عليه وقال له: ياأبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا فقال: على صدق باطنى فأعاننى على ظاهرى فأطرق الكسائى ومشى مفكرًا.

وعن بعضهم قال: دخلت على فتح الموصلى فرأيته قد مد كفيه يبكى حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه فدنوت منه فإذا دموعه قد خالطها صفرة، فقلت: ولم بالله يا فتح بكيت الدم فقال: لولا إنك أحلفتنى بالله ما أخبرتك.

نعم بكيت دمًا فقلت له: على ماذا بكيت الدموع فقال: على تخلفي عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صلحت لي الدموع قال: فرأيته بعد موته في المنام، فقلت: ما صنع الله بك؟ قال: غفر لي قلت له: فماذا صنع في دموعك فقال: قربني ربي -عز وجل- وقال لي: يا فتح الدموع على ماذا، قلت: يا رب على تخلفي عن وجب حقك، فقال: والدم على ماذا؟ قلت: على دموعي أن لا تصلح لي فقال لي: يا فتح ما أردت بهذا كله، وعزتي وجلالي لقد صعد حافظاك أربعين أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة وقيل: إن قومًا أرادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا إلى راهب منفرد بين الناس فنادوه فأشرف عليهم صومعة فقالوا: يا راهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق فأومأ برأسه إلى السماء فعلم القوم ما أراد فقالوا: يا راهب إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا؟

فقال: سلوا ولا تكثروا فإن النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث.

فعجب القوم من كلامه فقالوا: يا راهب علام الخلق غدا عند مليكهم فقال: على نياتهم فقالوا: أوصنا. فقال: تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما بلغ البغية ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه في صومعته.

وقال عبد الواحد بن زيد: مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته يا راهب فلم يجبني فناديته الثاينة فلم يجبني فناديته الثالثة فأشرف علي وقال: يا هذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في

سمائه وعظمه فى كبريائه وصبر على بلائه ورضى بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر فى حسابه وعقابه فنهاره صائم وليله قائم قد أسهره ذكر النار ومسآلة الجبار فذلك هو الراهب وأما أنا فكلب عقور حبست نفسى فى هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم فقلت: يا راهب فما الذى قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه؟

فقال: يا أخى لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها، لأنها محل المعاصى والذنوب والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله من ذنبه، وأقبل على ما يقربه من ربه.

وقيل لداود الطائى: لو سرحت لحيتك فقال: إنى إذن لفارغ وكان أويس القرنى يقول: هذه ليلة الركوع فيحى الليل كله فى ركعة، وإذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود.

وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه: لو رفقت بنفسك قال: الرفق أجلبنى دعينى أتعب قليلاً وأتنعم طويلا، وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا.

وقال سفيان الثورى: عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الممات يحمد القوم التقى.

وقال عبد الله بن داود: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لا ينام طول الليل وكان كهمس بن الحسن يصلى كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه: قومى يا مأوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ثم كان يبكى ويقول: ذهب نصف عملى. وكانت ابنة

الربيع بن خيثم تقول له: يا أبت ما لى أرى الناس ينامون وأنت لا تنام، فيقـول: يا ابنتاه إن أباك يخاف البيـات ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسـهر نادته يا بنـى لعلك قتلت قـتيـلاً، قال: نعم يا أمـاه قالت: فمن هو حتى تطلب أهله فيـعفوا عنك فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك فيقول: يا أماه هى نفسى.

وعن عمـر بن أخت بشر بن الحرث قـال: سمعت خـالى بشر بن الحرث يقول لأمى: يا أختى جوفى وخـواصرى تضرب على فقالت له: أمـا يا أخى تأذن لى حـتى أصلح لك قليل حـسـاء بكف دقـيق عندى تتحـساه يرم جوفك فـقال لها: ويحك أخـاف أن يقول من أين لك هذا الدقيق؟ فلا أدرى ايش أقول فبكت أمه وبكى مـعها وبكيت معهم. قال عمر ورأت أمى ما ببشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسًا ضعيفًا فقالت له أمى: يا أخى ليت أمك لم تلدنى فقد والله تقطعت كبدى مما أرى بك فسـمعتـه يقول لها وأنا: فليت أمى لم تلدنى وإذ ولـدتنى لم يدر ثديها على.

قال عمر: وكانت أمى تبكى عليه الليل والنهار وقال الربيع: مكانه حـتى صلى الظهر ثـم قال: إلى الصـلاة حتى صـلى العصـر ثم جلس موضـعه حـتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه حـتى العشـاء ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلـس فغلبته عيناه فـقال: اللهم إنى أعوذ بك يا أبا عبدالله مالى أراك كأنك مريض فقال: وما لأويس أن لا يكون مريضًا يطعم المريض وأن النار تسعر تحته كـيف ينام بينهما وقال رجل من النساء أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فـقعدت أرقبه فلف نفسه

بعباءة ثم رمى نفسه فلم ينقلب من جنب إلىّ فقلت له: رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعًا ثم لم تجدد الوضوء، فقالت: كنت اللية كله جائلاً فى رياض الجنة أحيانًا وفى أودية النار أحيانًا فهل فى ذلك نوم.

وقال ثابت البنانى: أدركت رجالاً كان أحدهم يصلى فيعجز عن أن يأتى فراشه إلا حبوًا، وقيل: مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء فى إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل: كان يقرأ، ﴿**قل هو الله أحد**﴾[1] إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة شك الراوى، وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت: رجل أصيب بمصيبة منكر الطرف منخفض الصوت طب العينين إن حركته جاءت عيناه بأربع، ولقد قالت له أمه: ما هذا الذى تصنع بنفسك تبكى الليل عامته لا تسكت لعلك يا بنى أصبت نفسًا لعلك قتلت قتيلاً؟

فيقول: يا أماه أنا أعلم بما صنعت نفسى، وقيل لعامر بن عبدالله: كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر، فقال: هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس فى ذلك خطير أمر وكان يقول: ما رأيت مثل الجنة نام طالبها، ولا مثل النار نام هاربها وكان إذا جاء الليل قال: أذهب حر النار النوم فما ينام حتى إذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسى فإذا جاء الليل قال: من خاف أدلج وعند الصباح يحمد القوم السرى. وقال بعضهم:

---

(١) سورة الإخلاص الآية (١).

صحبت عـامر بن عبد القـيس أربعة أشهر فمـا رأيته نام الليل ولا النهـار. ويروى عن رجل من أصـحـاب على بن أبى طالب -رضى الله تعالى عنه- أنه قال: صليت خلف على -رضى الله تعـالى عنه- الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال: والله لقـد رأيت أصحـاب محـمد ﷺ وما أرى اليـوم شيـئًا يشبهم كانوا يصبـحون شعثًا غبرًا صفرًا قد باتوا لله سـجدًا وقيامًا يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشـجر فى يوم الريح وهملت أعيـنهم حتى تبل ثيابهم وكـأن القوم باتوا غافلين يعنى من كان حوله وكان أبو مسلم الخولانى قد علق سوطًا فى مسجد بيته يخوف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومى فوالله لأزحفن بك حـتى يكون الكلل منك لا منـى فإذا دخلت الـفتـرة تناول سـوطه وضرب به سـاقه ويقـول: أنت أولى بالضرب من دابتى، وكـان يقول: أيظن أصحـاب محمد ﷺ أن يسـتأثروا دوننا كلا والله لنزاحمـهم عليه زحامًا حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً.

وكان صفـوان بن سليم قد تعقدت ساقـاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد ما لو قـيل له القيامة غدًا ما وجد متـزايد، وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البـرد وإذا كان فى الصيف اضطجع داخل البيوت ليـجد الحر فلا ينام وإنه مات وهو ساجـد وإنه كان يقول: اللهم إنى أحب لقاءك فأحب لقائى.

وقال القاسم بن محمد غدوت يومًا وكنت إذا غدوت بدأت عائشة -رضى الله عنها- أسلم عليهـا فغدوت يومًا إليهـا فإذا هى تصلى صلاة

الضحى، وهى تقرأ ﴿فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾[1] وتبكى وتدعو وتردد الآية فقمت حتى مللت وهى كما هى فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت أفرغ من حاجتى ثم أرجع ففرغت من حاجتى ثم رجعت وهى كما هى تردد الآية وتبكى وتدعو. وقال محمد بن إسحاق: لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجًا اعتلت إحدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء.

وقال بعضهم:

ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بينى وبين قيام الليل. وقال على بن أبى طالب -كرم الله وجهه- سمات الصالحين صفرة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم عليهم غبرة الخاشعين. . وقيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهًا فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره، وكان عامر بن عبد القيس يقول: إلهى خلقتنى ولم تؤامرنى وتميتنى ولا تعلمنى وخلقت معى عدواً وجعلته يجرى منى مجرى الدم وجعلته يرانى ولا أراه ثم قلت لى استمسك، إلهى كيف أستمسك وفى الدنيا الهموم والأحزان وفى الآخرة العقاب والحساب فأين الراحة والفرح، وقال جعفر بن محمد: كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثانى صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا كان السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد: فحدثت به بعض البصريين فقال: لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين

---

(١) سورة الطور الآية ٢٧.

الصيحتين حتى صاح. وعنهم القاسم بن راشد الشيبانى قال: كان دمعه نازلاً عندنا بالمحصب. وكان له أهل وبنات، وكان يقوم فيصلى ليلاً طويلاً فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون أفلا تقومون فترحلون فيواثبون فيسمع من ههنا داع ومن ههنا قارئ ومن ههنا متوضئ فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى.

وقال بعض الحكماء: إن لله عبادًا أنعم عليهم فعرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتًا للحكمة وتوابيت للفطنة وخزائن للقدرة فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون وقلوبهم تحول فى الملكوت وتلوذ محجوب الغيوم ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واصفًا أن يصفه فهم فى باطن أمورهم كالديباج حسناوهم فى الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعًا وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء. وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير فى بعض جبال بيت المقدس إذا هبطت إلى واد هناك فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوى عال فاتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية : **﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا .. إلى قوله تعالى: ويحذركم الله نفسه﴾**[1] قال: فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خر مغشيًا عليه فقلت وا أسفاه هذا لشقائى ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول: أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠.

بك من أعمال البطالين أعوذ بك من إعراض الغافلين ثم قال: خشعت قلوب الخائفين وإليك فزعت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفض يده فقال: ما لى وللدنيا وما للدنيا ولى عليك يا دنيا بأبناء جنسك وإلا فى نعيمك إلى محبيك فاذهبى وإياهم فاخدعى ثم قال: أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة فى التراب يبلون وعلى الزمان يفنون فناديته يا عبدالله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال: وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه؟ أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت أثامه؟ ثم قال: أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها ثم لها عنى ساعة وقرأ **﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾**[1] ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخر مغشيًا عليه فقلت: قد خرجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقول: من أنا، ما خطرى، هى لى أساءت من فضلك وجللنى بسترك واعف عن ذنوبى بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك فقلت له: بالذى ترجوه لنفسك وتثق به ألا كلمتنى فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه ودع كلام من أوبقته ذنوبه إنى فى هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدنى فلم يجد عونًا على ليخرجنى مما أنا فيه غيرك فإليك عنى يا مخدوع فقد عطلت على لسانى وميلت إلى حديثك شعبة من قلبى وأنا أعوذ بالله من شرك ثم أرجو أن يعيذنى من سخطه ويتفضل على برحمته قال: فقلت: هذا ولى الله أخاف أن أشغله فأعاقب فى موضعى هذا فانصرفت وتركته، وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير فى مسير لى إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف على فقال لى: يا

(١) سورة الزمر الآية ٤٧.

هذا قم فإن الموت لم يمت ثم هام على وجهه فاتبعتــه فسمعته وهو يقول كل نفس ذائقة الموت اللهم بارك لـى فى الموت فقلت: وفيمـا بعد الموت فقـال: من أيقن بما بعـد الموت شد مئـذر الحذر ولم يكن ثم فى الـدنيا مسـتقـر له قال: يا من لوجهـه عنت الوجوه بيض وجـهى بالنظر إليك واملأ قلبى من المحبة لك وأجرنى مـن ذل التوبيخ غدًا عندك فقد آن لى الحيـاء منك وحان لى الرجوع من الإعـراض عنك ثم قال: لولا حلمك لم يسـعنى أجلى ولولا عـفوك لم ينبسط فـيمـا عندك أملى ثم مـضى وتركنى وقد أنشدوا فى هذا المعنى:

نحيل الجسم مكتئب الفـؤاد تراه بقمـــة أو بطـــن وادى

ينـوح على معاصٍ فاضحـات يكدر ثقلها صفو الرقـــــاد

فإن هاجت مخــاوفه وزادت فدعوته أغثـنى يا عمـــادى

فأنت بمـــا ألاقيه عليـــــم كثير الصفح عن ذلل العبـاد

وقيل أيضًا:

ألذ من التلذذ بالغـــوانى إذا أقبلن فى حلل حســـان

منيب فر من أهل ومـــال يسيح إلى مكان من مكـــان

لتحمل ذكره ويعيش فردا ونظفر فى العبادة بالأمـــانى

تلذذه التـــلاوة أين ول وذكر بالفوائد وباللســـــان

وعند الموت يأتيه بشـــير يبشر بالنجاة من الهـــوان

فيدرك ما أراد وما تمنـــى من الراحات فى غرف الجنان

وكان كـرز بن وبرة يختم القرآن فى كل يوم ثلاث مـرات ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة فقـيل له: قد أجهدت نفسك فقال: كم

عمر الدنيا؟ فقيل سبعة آلاف سنة، فقال: كم مقدار يوم القيامة؟ فقيل: خمسون ألف سنة، فقال: كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم يعنى إنك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لما كان ربحك كثيرا وكنت بالرغبة فيه جدير فكيف وعمرك قصير والآخرة لا نهاية لها فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها فمهما تمردت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أفجع فى القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء فإن لم تكن إبل فمعزى وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون فى زمرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذو البصائر فى الدنيا وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ولا ترضى لها أن تنخرط فى سلك الحمقى وتقنع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يا نفس ألا تستنكفى أن تكونى أقل من امرأة فاحسى برجل يقصر عن امرأة فى أمر دينها ودنياها، ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات.

فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت: إلهى قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت: إلهى هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ أم

رددتهـا على فأعـزى وعزتك لهـذا دأبى ودأبك ما أبقـيتنى وعـزتك لو انتهرتنى عن بابك ما برحت لما وقع على نفسى من وجودك وكرمك.

ويروى عن عفرة أنهـا كانت تحى الليل وكانت مكفوفة البـصر فإذا كـان فى السحـر نادت بصوت لهـا مـحزون إليك قطع العـابدون دجى الليالى يسـتبقون إلى رحمـتك وفضل مغفرتك فـيك يا إلهى أسألك لا بغيرك أن تجعلنى فى أول زمـرة السابقين وأن ترفعنى لديك فى عليين من درجة المقربين وأن تلحقنى بعبـادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يـا كريم ثم تخر ساجدة فيسـمع لها وصية ثم لا تزال تدعو وتبكى إلى الفجر.

وقال يحيى بن بسطام: كنت أشهـد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء فقلت لـصاحب لى لو أتيناها إذ خلت فأمرناها بالرفق بنفـسهـا فقال: أنت وذاك قـال: فأتيناها فـقلت لها: لـو رفقت بنفسك واقـتصرت من هذا البكاء شـيئًا فكان لك أقـوى على ما تريدين قال: فبكت ثم قالت: والله لوددت أن أبكى حتى تنفد دموعى ثم أبكى دمًا حتى لا تبقى قطرة من دم فى جـارحة من جوارحى وأنى لى بالبكاء فلم تزل تردد وأنى لى بالبكاء حتى غشى عليها.

وقال محمد بن معاذ: حدثتنى امرأة من المتعبدات قالت: رأيت فى منامى كأنى دخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم فقلت: ما شأن أهل الجنة قـيـام فقـال لى قـائل: خـرجوا ينـظرون إلى هذه المرأة التى زخرفت شعوانة الجنان لقدومها فقلت: ومن هذه المرأة فقيل: أمة سوداء من أهل الأيكة يقال لها شعوانة قالت: فـقلت: أختى والله قالت فبينما

أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها فى الهواء فلما رأيتها ناديت يا أختى أما ترين مكانى من مكانك فلو دعوت لى مولاك فألحقنى بك قالت: فتبسمت إلى وقالت: لم يأن لقدومك ولكن احفظى عنى اثنتين: ألزمى الحزن من قلبك وقدمى محبة الله على هواك ولا يضرك متى وقال عبدالله بن الحسن: كانت له جارية رومية، وكنت بها معجبًا فكانت فى بعض الليالى نائمة إلى جنبى فانتبهت فالتمستها فلم أجدها فقمت أطلبها فإذا هى ساجدة وهى تقول: بحبك لى إلا ما غفرت لى ذنوبى فقلت لها: لا تقولى بحبك لى ولكن قولى: بحبى لك، فقالت: يا مولاى بحبه لى أخرجنى من الشرك إلى الإسلام وبحبه لى أيقظ عينى وكثير من خلقه نيام.

وقال أبو هاشم القرشى: قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها: سرية فنزلت فى بعض ديارنا قال: فكنت أسمع لها من الليل أنينًا وشهيقًا فقلت يومًا لخادم لى: أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع؟ قال: فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهى مستقبلة القبلة تقول: خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال وكل أحوالك لها حسنة، وكل بلائك عندها جميل وهى مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة أتراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها، وأنت عليم خبير وأنت على كل شىء قدير.

وقال ذو النون المصرى: خرجت ليلة من وادى كنعان فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل علىّ وهو يقول **﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾**[1]. ويبكى فلما قرب منى السواد إذا هى امرأة عليها جبة

---

(١) سورة الزمر الآية ٤٧.

صوف وبيدها ركـوة فقالت لى: من أنت غير فـزعة منى؟ فقلت: رجل غريب فقالت: يا هذا وهل يوجد مع الله غـربة؟ قال: فبكيت لقولها لى فقـالت لى: مـا الذى أبكاك؟ فقلت: قـد وقع الدواء على داء قـد قرح فأسـرع فى نجاحه قالـت: فإن كنت صادقًا فلـم بكيت؟ قلت: يرحمك الله، والصادق لا يبكى قـالت: لا، قلت: ولـم ذاك؟ قالت: لأن البكاء راحة القلب فسكت متعجبًا من قولها.

وقال أحمد بن على: اسـتأذنا على عفرة، فحجـبتنا فلازمنا الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فـسمعتها وهى تقول: اللهم إنى أعوذ بك ممن جـاء يشغلنى عن ذكرك، ثم فـتحت الباب ودخلنا عليـها فقلنا لها: يا أمة الله ادعى لنا فقـالت: جعل الله قراكم فى بيتى المغفرة، ثم قالت لنا: مكث عطاء السلمى أربعين سنة فـكان لا ينظر إلى السماء فخانت منه نظرة فخر مغشيًا عليـه فأصابه فتق فى بطنه فيا ليت عفرة إذا رفعت رأسها لم تعصى ويا ليتها إذا عصت لم تعد.

وقـال بعض الصالحين: خـرجت يومًـا إلى السـوق ومعى جـارية حبشية فـاحتبستها فى موضع بناحـية السوق وذهبت فى بعض حوائجى وقلت: لا تبرحى حـتى أنصرف إليك قـال: فانصرفت فـلم أجدها فى الموضع فانصرفت إلى منزلى وأنا شديد الغضب عليها فلما رأتنى عرفت الغضب فى وجـهى فقالت: يا مولاى لا تعـجل على إنك أجلستنى فى موضع لم أر فيه ذاكرًا لله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع فعجبت لقولها وقلت لها: أنت حرة فقالت: ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لى أجران وأما الآن فقد ذهب عنى أحدهما.

وقال ابن العلاء السعدى: كانت لى ابنة عم يقال لها: بريرة تعبدت وكانت كثيرة القراءة فى المصحف فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها: انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعزلها فى كثرة البكاء قال: فدخلنا عليها فقلنا يا بريرة كيف أصبحت؟ قالت أصبحنا أضيافًا منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب فقلنا لها: كم هذا البكاء؟ قد ذهبت عيناك منه فقالت: إن يكن لعينى عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منها فى الدنيا، وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدها بكاء أطول من هذا ثم أعرضت قال: فقال القوم قوموا بنا فهى والله فى شىء غير ما نحن فيه.

وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول هذا يومى الذى أموت فيه فما تطعم حتى تمسى فإذا جاء الليل تقول: هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى ختى تصبح.

وقال أبو سليمان الدارانى: بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها، وقمت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت: ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة قالت: جزاؤه أن تصوم له غداً.

وكانت شعوانة تقول فى دعائها: إلهى ما أشوقنى إلى لقائك وأعظم رجائى لجزائك، وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك الآملين، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين، إلهى إن كان دنا أجلى ولم يقربنى منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللى فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذت فمن أعدل منك هنالك إلهى قد جرت على نفسى

فى النظر لها وبقى لهـا حسن نظرك، فالويل لها إن لم تسـعدها، إلهى إنك لم تزل بى برًا أيام حياتى فلا تقطع عنى برك بعد مماتى ولقد رجوت ممن تولانى فى حياتى بإحسانه أن يسعفنى عند مماتى بغفرانه، إلهى كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتى ولم تولنى إلا الجـميل فى حياتى، إلهى إن كانت ذنوبى قد أخافتنى فإن مجيئى لك قد أجارته فتول من أمرى ما أنت أهله وعـد بفضلك على من غـره جـهله، إلهى لو أردت إهانتى لما هديتنى ولو أردت فضيحتى لم تستـرنى فمتعنى بما له هديتنى وأدم لى ما به سترتنى إلهى أظنك تردنى فى حاجة أفنيت فيها عمرى، إلهى لولا ما قرفت من الذنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك.

وقال الخواص: دخـلنا على رحلة العابدة وكانت قد صـامت حتى اسودت، وبكت حتى عميت، وصلت حتى أقعدت وكانت تصلى قاعدة فسلـمنا عليهـا ثم ذكرناها شـيئًا من العـفو ليـهون عليـها الأمـر قال: فشهقت، ثم قالت: علمى بنفـسى فرح فؤادى وكلم كبدى والله لوددت أن الله لم يخلقنى ولم أك شيئًا مذكورًا ثم أقبلت على صلاتها.

فـعليك إن كنت من المرابـطين المراقـبين لنفـسك أن تطالع أحـوال الرجال والنساء من المجتهـدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك، وإياك أن تنظر إلى أهل عـصـرك فإنك إن تطع أكـثـر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله، وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر وإن أردت مزيدًا فعليك بالمواظبة على مطالعة كـتاب «حلية الأولياء» فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه

يستبين لك بعـدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فـإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك، وقـالت: إنما تيسر الخير فى ذلـك الزمان لكثرة الأعـوان والآن فـإن خالفت أهـل زمانك رأوك مـجنونا وسـخـروا بك فوافقهم فـيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك إلا مـا يجرى عليهم، فإن المصيبة إذا عمت طابت فإياك أن تتـدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها وقل لهـا أرأيت لو هجم سـيل جـارف يغـرق أهل البلد وثبـتـوا أعلى مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم لحقيقة الحال وقدرت أنت على أن تفارقـيهم وتركبى فى سـفينة تتخلصـين بها من الغرق فـهل يختلج فى نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت أم تتركينـى موافقتهم وتستجهلينهم فى صنيعهم وتأخـذين حذرك مما دهاك فإذا كنت تتركين موافقـتهم خوفًا من الغرق، وعـذاب الغرق لا ينادى إلا سـاعة فكيف لا تهـربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حـال؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت؟ ولأهل النار شغل شـاغلى الالتفـات إلى العموم والخـصوص ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمـانهم حيث قالوا: ﴿**إنا وجدنا آباءنـا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾[1] فعليك إذا اشتغلت بمعـاتبة نفسك وحملها الاجتهاد فاستعصت أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتقريعها وتعريفها سوء نظرها لنفسها لعلها تنزجر عن طغيانها.

(المرابطة السادسة فى توبيخ النفس ومعاتبتها)

اعلم أن أعدى عـدوك نفسك التى بين جنبيك، وقـد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير، وأمـرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن

---

(١) سورة الزخرف الآية ٢٣.

لذاتها فإن أهملتها جمحت وشـردت ولم تظفر بها بعد ذلك وإن لازمتها بالتوبيخ والمعـاتبة والعزل والملامـة كانت نفسك هى الـنفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصـير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغـفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولاً بوعظ نفسك.

أوصى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى وقال تعالى: ﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾[1].

وسبـيلك أن تقبل عليها فـتقرر عندها جـهلها وغباوتهـا وأنها أبدًا تتعـزز بفطنتها وهوايتهـا ويشتد أنفهـا واستنكافها إذا نسـبت إلى الحمق فتـقول لهـا: يا نفسى ما أعظم جـهلك تدعين الحكمة والذكـاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وجمعًا، أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وإنك صـائرة إلى إحداهـما على القـرب فـمالك تفـرحين وتضـحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غدا فأراك ترين الموت بـعيدًا ويراه الله قريبًا أمـا تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن البعـيد ما ليس بآت أما تعلمين أن الموت يـأتى بغتة من غير تقـديم رسول ومن غير مواعـدة ومواطأة وأنه لا يأتى فى شىء دون شىء ولا فى شتاء دون صيف ولا فى صيف دون شتاء ولا فى نهار دون ليل ولا فى ليل دون نـهـار ولا يأتى فى الصـبـا دون الشـبـاب ولا فى الشباب دون الصبـا، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فـإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فـجأة ثم يفضى إلى الموت فمالك لا تستعدين للموت.

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٥.

وهو أقرب إليك من كل قريب أما تتدبرين قوله تعالى: ﴿**اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون، ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم**﴾(1) ويحك يا نفس إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حيائك ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأى جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطقين عذابه هيهات هيهات جربى نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسى ساعة فى الشمس أوفى بيت الحمام أو قربى أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل فى دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم فمالك تنزعين الروح فى أجلها وتحصيلها من وجه الحيل فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك مع كنز أو يسخر عبدًا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعى منك ولا طلب أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تعديل لها، وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، ويحك يانفس ما أعجب نفاقك ودواعيك الباطلة فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك: ومولاك: ﴿**وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها**﴾(2) وقال فى أمر الآخرة، ﴿**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**﴾(3) فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعى فيها فكذبتيه بأفعالك وأصبحت تتكالبين على

---

(1) سورة الأنبياء [1 : 3]. (2) سورة هود الآية 6.

(3) سورة النجم.

طلبها تكالب المدهوش المستهتر ووكل أمر الأخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ما هذا من علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار.

ويحك يا نفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات. أتحسبين أنك تتركين سدى ألم تكونى نطفة من منى يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى، أليس ذلك بقادر على أن يحى الموتى فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك أما تتفكرين أنه لماذا خلقك من نطفة فقدرك ثم السبيل يسرك ثم أماتك فأقبرك أفتكذبينه فى قوله، ثم إذا شاء أنشرك فإن لم تكونى مكذبة فمالك لا تأخذين حذرك ولو أن يهوديًا أخبرك فى ألذ طعامك بأنه يضرك فأمرضك فصبرت عنه وتركتيه وجاهدت نفسك فيه، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى فى كتبه المنزلة أقل عندك تأثيرًا من قول يهودى يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم، والعجيب أنه لو أخبرك طفل بأن فى ثوبك عقربًا لرميت ثوبك فى الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان، أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبى من جملة الأغبياء، أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يومًا أو أقل ما هذه أفعال العقلاء، بل لو انكشفت للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فمالك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يختطفك من غير مهلة فيما إذا أمنت استعجال الأجل وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة

أفتظنين أن من يطعم الدابة فى حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها، إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك.

أرأيت لو سافر رجل ليتفقه فى الغربة فأقام فيها سنين متعطلاً بطالاً يعد نفسه بالتفقه فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أتفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتمادًا على كرم الله سبحانه وتعالى.

ثم هبى أن الجهد فى آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلا.

فلعل اليوم آخر عمرك.

فلم لا تشتغلين فيه بذلك فإن أوصى إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف؟ هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة؟

أتنتظرين يومًا يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك وتقولين: غدًا غدًا فقد جاء الغد.

وصار يومًا فكيف وجدته أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يومًا كان له حكم بالأمس بل تعجزين عنه اليوم فأنت غدًا عنه أعجز وأعجز، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التى تعبد العبد بقلعها فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى

فأخرها إلى سنة أخرى مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخًا ويزيد القالع ضعفًا ووهنًا فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب.

بل من العناء رياضة الهرم، ومن التعذيب تهذيب الدين والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك.

فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركنين إلى التسويف.

فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ولعلك تقولين ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرص على لذة الشهوات وقلة جرى على الآلام والمشقات فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصامتة عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ولا قطع في ذلك إلا في الجنة.

فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها فرب أكلة تمنع أكلات.

وما قولك في عقل مريض، أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طوال عمره وأخره إنه إن شرب ذلك مرض مرضًا مزمنًا وامتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضي شهوته في الحال خوفًا من ألم المخالفة ثلاثة أيام.

حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل الجنة. وعذاب أهل النار.

أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته وليت شعرى ألم الصبر على الشهوات أعظم شدة وأطول مدة.

أو ألم النار فى دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ما أراك تتوبين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى أو لحمق جلى.

أما الكفر الخفى فهو شعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب وأما الحمق الجلى فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق، بل تتوصلين إلى غرضك فى ذلك بجميع الحيل أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها من رسول الله ﷺ حيث قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى».

ويحك يا نفس لا ينبغى أن تغرك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور، فانظرى لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ولا تضيعى أوقاتك فالأنفاس معدودة فإذا مضى فيك نفس فقد ذهب بعضك فاغتنمى الصحة قبل القسم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت.

واستعدى للآخرة على قدر بقائك فيها، يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد

من غير حيــة وليد وحطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك أفــتظنين أيتها النفس أن زمهــرير جهنم أخف بردًا وأقــصر مدة عن زمــهرير الشــتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا كــلا أن يكون هذا كــذلك أو أن يكون بينــهمــا مناسبة.

فى الشدة والبرودة أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى هيهات لما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجنة والنار.

وسائر الأســباب فــلا يندفع حر النار وبردها إلا بحــصن التوحــيد وخندق الطاعات وإنما كرم الله تعالى فى أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أســبابه لا فى أن يندفع عنك العــذاب دون حصن كــما أن كــرم الله تعالى فى دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك الطريق استخراجها من بين حديدة وحــجر حــتى تدفعى بها بــرد الشتاء عن نفــسك وكمــا أن شراء الحطب والجبة فما يستغنى عنه خالقك ومولاك، وإنما تشترينه لنفسك.

إذ خلقـــه سببًا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهدتك أيضًا هو مستغن عنها وإنما هى طريقك إلى نجاتك.

فمن أحسن فلنفسه ومن أســاء فعليها والله غنى عن العالمين ويحك يا نفس، انزعى عن جهلك وقيسى آخرتك بدنياك فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة.

وكما بدأنا أول خلق نعيده، وكما بدأكم تعودون، وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا.

ويحك يا نفس إذا ما ألفت الدنيــا وأنست بها فعز عليك مفارقــتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين فى نفسك مودتها فاحسبى أنك غافلة

عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المغرق.

بينك وبين محابك، أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمن بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه.

ثم يضطر لا محالة إلى مفارقته أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى. أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك.

ومالك فيها إلا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ولذلك قال سيد البشر ﷺ إن روح القدس نفث فى روحى أحبب من أحببت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به، وعش ما شئت فإنك ميت.

ويحك يا نفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى.

أما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم.

أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون ويؤجلون ما لا يدركون بين كل واحد قصراً وقوى إلى جهة السماء وقوة قبر محفور تحت الأرض فهل فى الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا.

يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينًا ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعًا أما تستحين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم.

وأحسب أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء فقيسى عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا.

واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء.

يا نفس ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك، عجبًا لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها أو ما تتفكرين أن النجاة لا معنى لها إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك فاحسبى أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك أفما تعرفين إنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد مما على الأرض سجد لك.

وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أن على الملوك الذين كانوا من قبلك، **﴿فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا﴾**[1]، فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى هذا إن كنت ملكًا من ملوك الأرض.

سلم لك الشرق والغرب حتى إذا عنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف ويأتى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلاً عن محلتك فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك.

فما لك لا تتركينها ترفعًا عن خسة شركائها وتنزها عن كثرة عنائها وتوقيًا من سرعة فنائها فما لك لا تزهدين فى قليلها بعد أزهد فيك

---

(١) سورة مريم الآية ٩٨.

كثيرها وما لك تفرضين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس.

يسبقونك بها ويزيدون عليك فى نعيمها وزينتها فللدنيا يسبقك هؤلاء الأخساء فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكونى فى زمرة المقربين من النبيين والصديقين فى جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكونى فى صف النعال.

من جملة الحمقى الجاهلين أياما قلائل فيا حسرة عليك، إن خسرت الدنيا والدين.

فبادرى ويحك يا نفس، فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت ورد النذير فمن ذا يصلى عنك بعد الموت، ومن ذا يصوم عنك بعد الموت، ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت.

ويحك يا نفس ما لك إلا أيام معدودة هى بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة فى حق نقصك.

فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك، أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود آتيك والفزع الأكبر بين يديك.

أما علمت يا نفس أن عسكر الموت عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لا يرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم، أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يومًا ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت فى أمنيتهم ويوم من عمرك لو

بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه، وأنت تضيعين أيامك فى الغفلة والبطالة.

ويحك يا نفس، أمـا تستحين تزينـين ظاهرك للخلـق، وتبـارزين الله فى السـر بالعظائم، أفتستحـين من الخلق، ولا تستحين من الخالق.

ويحك، أهو أهون النـاظرين عليك أتأمـرين الناس بالخيـر وأنت مـتلطخـة بالرذائل تدعـين إلى الله وأنت فـارة، وتذكـرين بالله وأنت له ناسية.

أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العـذرة، وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين فى تطهير غيرك وأنت غير طيبة فى نفسك.

ويحك يا نفس، لو عرفت نفسك حق المعـرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك

ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حـماراً لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك.

ومع هذا فتعجبين بعملك، وفـيه من الآفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لكان الربح فى يديك، وكـيف تعجـبين بعملك مع كثـرة خطاياك وزلك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتى ألف سنة.

وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه، ويحك يا نفس ما أقذرك، ويحك يا نفس ما أوقحك، ويحك يا نفس ما أجهلك.

وما أجرك على المعاصى، ويحك كم تعقدين فتقضين، ويحك كم تعقدين فتعذرين، ويحك يا نفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك

كأنك غير مرتحلة عنها أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثير وبنوا مشيدًا وأملوا بعيدًا فأصبح جمعهم بورًا وبنيانهم قبورًا وأملهم غرورًا، ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين هيهات هيهات ساء ما تتوهمين ما أنت إلا فى هرم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابنى على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك.

أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن.

أو يرحم منك البكاء والعجب كل العجب منك يا نفس إنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك.

ولا تحزنين بنقصان عمرك وما نفع مال يزيد وعمر ينقص، ويحك يانفس، تعرضين عن الآخرة وهى مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهى معرضة عنك.

فكم من مستقبل يومًا لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يبلغه فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك فاحذرى أيتها النفس المسكينة يومًا إلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدًا أمره فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته.

فانظرى يا نفس بأى بدن تقفين بين يدى الله وبأى لسان تجيبين وأعدى للسؤال جوابًا وللجواب صوابًا.

واعملى بقـية عمرك فى أيام قـصار لأيام طوال وفى دار زوال لدار مقام.

وفى دار حزن ونصب لدار نعـيم وخلود اعملى قـبل أن لا تعملى اخرجى مـن الدنيا اخـتيار خـروج الأحرار قـبل أن تخرجى منهـا على الاضطرار ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا.

فرب مسرور مغبون، ورب مغبون لا يشعر فويل لمن له الويل ثم لا يشعر يضحك ويفرح ويلهـو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار، فليكن نظرك يا نـفس إلى الدنيا اعتبـارًا وسعيك لها اضطرارًا ورمقـك لها اختيارًا وطلبك للآخـرة ابتدارًا ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ويبتغى الزيادة فيما بقى وفيها الناس ولا ينتهى.

واعلمى يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار.

فإنه يسار به وإن لم يسر فـاتعظى يا نفس بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار وما أراك بها راضية ولا لهـذه الموعظة واعيـة فإن كـانت القسـاوة تمنعك عن قبـول الموعظة فاستعينى عليها بدوام التهجـد والقيام، فإن لم تذل فبالمواظبة على القيام فان لم تذل فبقلة المخالطة والكلام، فإن لم تذل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام، فإن لم تذل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه وأنه قد تراكمت ظلمة الذنـوب على ظاهره وباطنه فوطنى نفسك على النار، فقـد خلق الله الجنة، وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلـق لها أهلاً، فكل ميسر لما خلق له فلم يبق فيك مجال للوعظ.

فاقنطى من نفسك، والقنوط كبيرة من الكبائر، نعوذ بالله من ذلك فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء.

مع انسداد طرق الخير عليك. فإن ذلك اغترار وليس برجاء فانظرى الآن هل يأخـذك حزن على هذه المصـيبـة التى ابتليت بها تسـمح وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفـسك فإن سمحت فمستقى الدمع مع بحر الرحمة فقد بقى فيك موضع للرجاء فواظبى على النياحة والبكاء واسـتـعـينى بأرحم الراحـمين، واشـتكى إلى أكـرم الأكـرمين وأدمنى الاستـغاثة ولا تملى طول الشكـاية لعله أن يرحم ضعـفك ويغيـثك فإن مصيبـتك قد عظمت وبليتك قد تفاقـمت وتماديت قد طال وقد انقطعت منك الحيل. وراحت عنك العلل.

فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك.

فافزعي إليـه بالتفرغ واخشعى فى تضـرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك، لأنه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة المضطر.

وقد أصبحت إليـه اليوم مضطرة وإلى رحمته محتـاجة وقد ضاقت بك السبل وانسـدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيـل ولم تنجح فيك العظات.

بهذا يكون هذا الكتاب قد تم بحمـد الله وتوفيقه، وفى هذا القدر كفاية لمن وقف عن قول الله تعالى ﴿**اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا**﴾[1].



(١) سورة الإسراء الآية ١٤.

فهــرس كتــاب

الصفحة

المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت : ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠